إيريس حبيب المصري

لماذا نسينا ؟!

مكتبة المحبة

مقدمة :

من العجب العجاب أن الإنسان حيثما سار يجد كل شعب معتزاً بتراثه مهما كان ضئيلا ! والأعجب أننا تناسينا تراثنا الى حد بعيدا ! فنحن مازلنا نتباهى بأننا سلالة الفراعنة وأولاد الشهداء ــ ولكن ما مدى معرفتنا بأمجاد الفراعنة و بتسامى الشهداء ؟ والى أى حد نستطيع أن نسلك وفقا لما توحى به هذه الأمجاد وما يحتمه هذا التسامى ؟ ألم يحن الوقت لأن نتعرف على تاريخنا العريق الممتد الى أجيال بعيدة ؟ ألا يليق بنا أن نتبين ما فى أمجاد الفراعنة من روحانية عميقة ومن إدراك للمسئولية الأدبية ؟ ثم ــ بعد ذلك ــ ألا يليق بنا أن نعرف أن « أم الشهداء » ليست أماً لشهداء اضطهاد دقلديانوس وحده ؟! لقد كان اضطهاده السابع بين واحد وعشرين من الاضطهادات التى أثارها الأباطرة الرومانيون فالبيزنطيون . وتتابعت الاضطهادات بعد ذلك : إنها أشبه بأمواج البحر : موجة فراحة تليها موجة فراحة .

على أننا هنا نهدف الى إبراز التراث الفرعونى ليدرك أولئك الذين انحدروا من سلالتهم مدى التبصر الروحى الذى تميز به مفكرو قدماء المصريين . ولقد شهد الكتاب المقدس لهذا التبصر فى جملة خاطفة : « وتهذب موسى بكل حكمة المصريين » . وهذه الشهادة أعلنها استفانوس أول شهيد سفك دمه على اسم السيد المسيح . أو بالحرى أول شهيد بين من حملوا الكرازة . وقد أوردها ضمن مساجلته فى مجمع الليبرتينيين والقيرواينين والإسكندرين والذين من كيليكيا وآسيا ، الذين ساقوه الى مجمع الكهنة (١) . وفى مواجهة كل هؤلاء أعلن لهم هذه الحقيقة التى يجدر بنا أن نعتز بها

كذلك يجدر بنا أن نعرف أن اسم مصر ومشتقاته ورد مائتين وتسع عشرة مرة فى العهدين القديم والجديد ، وأن عدداً غير قليل من بينها يعلن البركة التى سيمنحها الله لمصرنا العزيزة ثم التى منحها لها بالفعل . فلقد أعلن لنا رب المجد بأن السماء والأرض تزولان ولكن كلامه لا يزول .

فحق علينا أن نتمعن تراثنا الفرعونى بشىء من التوقير لندرك ما فيه من جمال روحى . وسنعرف من هذا التمعن أن المصريين قد لمحواهم أيضا « شبه السماويات وظلها » فجاء الكثير من تعاليمهم متوازيا مع الناموس الذى قيل عنه إن « له ظل الخيرات العتيدة » (٢) .

---

(١) أعمال ٦ : ٩ الى الآخر الأصحاح السابع

(٢) عبرانيين ٨ : ٥ و١٠ : ١ ــ وأعجب ما فى هذا الموضوع أن الأوربيين والأمريكيين قد سبقونا فى إثبات الروحانية الفرعونية وفى الأثر الذى أحدثته فى أعماق الذين كتبوا العهد القديم !

وهذه الحقيقة تتناغم مع شاملية المحبة الإلهية : فالخالق المبدع قد « صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض » (١) . ومادامو من دم واحد ففى أعماقهم يكمن الوعد الإلهى بالفداء .

١ ــ ولنبدأ بالعصور الأكثر قربا منا ولنقض بضع لحظات فى أواخر القرن الرابع الميلادى وأوائل الخامس ــ فى حضرة الأنبا تيئوفيلس (البابا الثالث والعشرين) فقد جاء الامبراطور ثيئودوسيوس الكبير لزيارته فأقنعه بفكرة تحويل المعابد الوثنية الى كنائس مسيحية . وبدأ بمعبد السيرابيوم . ومما يجدر ذكره هنا أن العمال وهم يقومون بهدم تمثال الإله سيرابيس المقام فى وسط ذلك المعبد عثروا على كتابة هيروغليفية منحوتة فوق القاعدة التى يرتكز عليها التمثال ــ منحوتة على شكل صليب . فلما قرأوها وجدوا أن معناها « حياة الدهر الآتى » . وحين رأى هذا بعض المصريين الذين كانوا مازالوا على وثنيتهم قالوا : « هذه علامة على تنبوء آبائنا عن أن الصليب هو شارة الحياة الأبدية » وآمنوا لساعتهم بالسيد المسيح .

وفى هذا الصدد يقول الراهب الفرنسى ميشيل چوليان (الذى زار مصر سنة ١٩٠٢) بأنه حين زار المعابد الفرعونية لحظ أن المصريين حين اعتنقوا المسيحية لم يهدموا معابد آلهتهم القديمة بل حولوها الى كنائس . وفى بعض الأحيان كرسوا جزءً من المعبد كنيسة . ولم يجدوا حرجا فى أن يقيموا صلواتهم داخل جدران هذه المعابد القديمة . فمثلا وجد الأب ميشيل چوليان كنيسة فى صحن معبد دندرة ، واثنتين فى معبد الأقصر ، واثنتين اخريتين فى معبد الكرنك . كذلك يبدو أن معبد الملكة هاتشبسوت كان قد تحول الى دير أطلقوا عليه اسم « الدير البحرى » . على أنه لم يبق الآن أثر لهذا الدير غير بعض الصلبان المرسومة على جدرانه (٢) . وجدير بنا أن نعرف أن معبد رمسيس الثالث معروف اليوم باسم « مدينة هابو » ــ وهابو كان رئيس دير لجأ هو ورهبانه الى هذا المعبد وعاشوا فيه تجنباً لبطش الحكام الذين كانوا يخافون الأرواح التى ظنوها ساكنة فيه .

٢ ــ وبعد هذه اللمحة العابرة لترجع الى تلك السنوات التى كانت مليئة بركة بحياة السيد المسيح فى وادينا الرحيب هرباً من بطش هيرودس . فلقد تنقلت العائلة المقدسة فى كافة البقاع المصرية . وحدث فى تلك الأثناء أن سمع رجل اسمه ودامون الأرمنتى أن الطفل الإلهى وصل مع أمه السيدة العذراء ويوسف النجار الى الأشمونين . فدفعه تطلعه نحو المسيا الى أن يسافر الى منطقة مصر الوسطى ليمتع قلبه برؤية « الملك المرتقب » . وبما أن رب المجد قد أعلن بأن كل من يأتى اليه لا يرده خارجا فقد منح ودامون الأرمنتى تحقيق تطلعاته : فرآه وسجد له كما فعل المجوس من قبل . وخلال هذه الزيارة أعلمه السيد المسيح بأن بيته سيصبح كنيسة .

---

(١) أعمال ١٧ : ٢٦ .

(٢) « قصة الكنيسة القبطية » للمؤلفة حـ ١ ــ الهامش على ص ٣٤٩ وص ٣٥٠ ــ ٣٥١

وفى أثناء غيابه سأل عنه بعض الأصدقاء فأخبرهم أهل بيته بسفره و بالغرض الذى سافر من أجله . فلما عاد ودامون من رحلته قصد اليه هؤلاء الأصدقاء وأخذوا يستفسرون منه عما رآه . فاندفع بحماسة فرحته الى وصف مشاهداته . ثم أكد لهم فى نهاية حديثه بأن هذا هو « ابن الإنسان » (١) الملك البار الذى لن ينقذ مصر وحدها مما تعانيه ولكنه سينقذ العالم كله .

واستمعوا اليه فى ذهول وحدث بينهم ما حدث فيما بعد لكل من رأوا المسيا أو سمعوا عنه : أى أن البعض انفتحت قلوبهم بينما رفضه البعض الآخر . فذهب الفريق الثانى الى الوالى وأبلغه بما عمله ودامون وما قاله . ورأى الوالى الرومانى فى هذا الوليد خطراً على قيصر بالضبط كهيرودس ولكنه اكتفى بأن أرسل الى ودامون واستحضره أمامه . و بعدما استجوبه ورأى إصراره على يقينه من أن ذاك الذى رآه هو الملك الذى طالما تطلعوا نحو مجيئه ، أمر بقطع رأسه كى لا يسرى اقتناعه الى غيره . وهكذا نال اكليل الشهادة ورب المجد مازال طفلا هارباً لاجئا الى بلادنا ! فصدق عليه قول بولس الرسول : « هؤلاء ... لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها ... » (٢) وودامون لم يحيها فقط بل مات أيضا تهليلاً بتحقيقها . وهذا هو السبب فى وصف استفانوس بأنه أول شهيد بين الكارزين . لأن ابن مصر ــ ودامون ــ قد سبقه فكان الأول بين جميع الشهداء (٣) .

تحية وإعزازاً لهذا الشهيد المصرى الذى تناساه أهله مدى قرون !

٣ــ ونحن نكتفى بأن نردد فى مختلف المناسبات قول الوحى الإلهى : « مبارك شعبى مصر » ، ولنا كل الحق فى أن نفرح بهذه البركة الإلهية . ولكن هناك آيات وردت عن مصرنا الحبيبة فى الكتاب المقدس قلما نذكرها ــ مثلا « هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم الى مصر » ، « و يكون للرب مذبح فى وسط أرض مصر وعمود عند تخمها » (٤) ، وحين أعلن له المجد أنه سيضرب أرض مصر أشفق عليها بأن أكمل إعلانه هذا بقوله « ضاربا فشافيا » (٥)

كذلك قيل : « من مصر دعوت ابنى » ــ أفلا تذكرنا هذه ببركة إقامة ربنا فى أرضنا ؟ لقد عاش فيها ، وظللته سماؤها ، وشرب من نيلها بل وتنقل فوق مياهه . ولولم يكن عارفا بأنها سترحب به لما لجأ اليها . ولقد علق ذهبى الفم على هذا الالتجاء بقوله : « إن مصر لتكريمها الطفل الإلهى قد نالت بركة مضاعفة ــ فبعد أن قضى الرب فيها فترة أصبحت وطن العباد والنساك والمتوحدين والسواح . فصارت السماء بنجومها أقل جمالاً من صحارى مصر بنساكها » .

---

(١) هذا اللقب قد استعمله الكاهن نفرو وهو سنة ٢٠٠٠ ق . م . ، راجع « مسيحنا فوق الزمان » للمؤلفة : المقدمة ص ٢٦ ، وهذه التسمية لم يذكرها غير دانيال النبى ٧ : ١٣ ــ وهو قد عاش فى القرن السادس ق . م .

(٢) عبرانيين ١١ : ١٣

(٣) « مسيحنا فوق الزمان » للمؤلفة ص ٥٤ ــ ٥٥

(٤) وهذا معناه شمول مصر من وسطها الى حدودها

(٥) أشعياء ١٩ : ٢٢

وهوشع الذى أعلن بأن الله قد دعا ابنه من مصر قال أيضا عن بنى إسرائيل : « إنهم قد ذهبوا من الخراب تجمعهم مصر » (١) .

ومن العجب بمكان أننا لا نذكر يوسف إلا فى موقفه أمام زوجة سيده وننسى كرم سيده فى معاملته له حتى لقد قيل : « و بارك الرب بيت المصرى » (٢) .

والى جانب كل هذه البركات أعلن لنا الوحى الإلهى فى أربع كلمات ما يجب أن يملأنا فرحاً واعتزازاً ، وهذه الكلمات هى : « كجنة الرب كأرض مصر » (٣) .

و بالطبع وردت هذه البركات (وغيرها) عن مصر قبل أن تؤمن بالسيد المسيح : فهى بوركت حينما كانت وثنية ! أليس من اللائق بنا إذن إن نعود بالذكرى الى تراثنا الفرعونى ؟

٤ ــ على أنه بالرغم من تناسينا فمصر الفرعونية مازالت متغلغلة فى أعماقنا ! فمثلا : لماذا يلبس كهنتنا الملابس البيضاء أثناء تأدية الشعائر المقدسة ؟ ستكون الإجابة المباشرة بأن الرآئى وصف السمائيين على أنهم يلبسون الأبيض . وهذا حق . ولكن ــ هل ياترى كان الفراعنة على علم بأن اللون الأبيض هو الذى يرتديه السمائيون ؟ لقد كان كهنتهم يلبسون الأبيض حتى فى حياتهم اليومية ثم يلبسونه على شكل أكثر وجاهة حين يؤدون الصلوات . ونحن بدورنا كان كهنتنا يلبسون الأبيض فى حياتهم اليومية منذ بداية المسيحية الى أن أصدر السلطان الحاكم بأمر الله حكمه عليهم بأن يرتدوا السواد خارج الكنيسة . فكانوا كآبائهم السابقين على العصر المسيحى يرتدون الأبيض يوميا ثم يغيرونه بالأبيض المزخرف بالذهب تعبيراً عن وقوفهم فى حضرة الملك السماوى .

ومما يجدر بنا تذكره أن الكاهن الفرعونى كان إذا ترمل لا يتزوج ثانية . ألا نرى فى هذا المسلك إدراكاً للأبوة الروحية التى هى السبب الأساسى فى عدم زواج الكاهن القبطى بعد ترمله ؟

ثم إننا نعرف جميعا أن ألحاننا التى نترنم بها فى شعائرنا المقدسة مختلفة تماماً عن ألحان الكنائس الأخرى . صحيح أن اللحن يعكس الطابع المحلى مما تسبب عنه الاختلاف . ولهذا يخبرنا الدارسون بأن ألحاننا هى ألحان فرعونية أصيلة . بل إن ألحان يوم الجمعة العظيمة ذات الرنين العميق فى الحزن هى بعينها الألحان التى كان يترنم بها المصريون « الفراعنة » وهم يحنطون جثث موتاهم .

---

(١) هوشع ١١ : ١ و٩ : ٦
(٢) تكوين ٣٩ : ٥
(٣) تكوين ١٣ : ١٠

والعجيب أن عدد « أربعين » له قيمة خاصة فى الكتاب المقدس ــ وله الأهمية نفسها عند الفراعنة . فموسى قضى أربعين يوما على الجبل ليأخذ من الله لوحى العهد . وحين وصف الله لموسى بناء « المسكن » أمره بأن يصنع لكل لوح أربعين قاعدة (١) . أما عند الفراعنة فكانوا يقضون أربعين يوماً فى عملية التحنيط (٢) . ولئن كنا الآن نقيم الصلوات يوم الأربعين تذكاراً لأحبائنا الذين رقدوا فليس عملنا هذا مجرد تراث فرعونى إنما الهدف منه هو إدخال العزاء على القلوب الكسيرة .

كما أن لبعض الأعداد اعتباراً خاصاً فى الأسفار الإلهية مثل أعداد ثلاثة وسبعة واثنى عشر (ومشتقاتها) ونجد أن لها أعتباراً عند الفراعنة أيضا ــ فكان لهم «ثالوث» ضمن الآلهة ، وكانت المحكمة ــ الإلهية والإنسانية ــ تتألف من اثنين وأربعين قاضيا ــ وكل هذا كان سابقا على العهد القديم .

كذلك نرى فى « العنخ » ــ مفتاح النيل أو مفتاح الحياة عند الفراعنة شكلا واضحا للصليب .

٥ ــ وثمة سؤال آخر : لماذا نراعى فى بناء كنائسنا أن يكون المذبح ناحية الشرق ؟ سيجيب البعض فوراً بأن السبب يرجع الى أن السيد المسيح هو ذاك الذى قال عنه النبى « ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها » (٣) . والشمس تشرق من الشرق . وهذه النبوة فى حد ذاتها تذكرنا بمصر ــ فليس بين الشعوب جميعا من صور الشمس بأجنحة غير الفراعنة . وليس ذلك فحسب بل إنهم ــ فوق ذلك ــ راعوا وضع « قدس الأقداس » فى معابدهم ناحية الشرق : راعوه بدقة متناهية فصمموا على أن أول شعاع للشمس عند انبثاقها وقت منتهى الفيضان ــ ١١ سبتمبر ــ يصل لغاية قدس الأقداس : الى داخله . فهم أيضا كانت معابدهم تتضمن قدس الأقداس وهم أيضا كانوا يتجهون نحو الشرق .

٦ ــ ومن العجيب أننا مازلنا نستعمل تقويمهم السحيق فى القدم . ولكن بما أننا نطلق عليه أسم « سنة الشهداء » فقد غاب عنا تماماً أن هذه السنة التى رأى آباؤنا أن يجعلوا اسمها ترابطا بشهدائهم هى للآن تحمل أسماء الآلهة الفرعونية فى شهورها ! ونحن نبدأوها فى ١١ بتمبر ــ أى كما كانوا يبدأونها هم إذ قد ربطوا بينها و بين فيضان نيلهم العز يز . ولدقة حظاتهم كانوا الشعب الوحيد بين الشعوب القديمة الذى استعمل السنة الشمسية . أما الشعوب خرى ، ومن بينهم العبر يون ، فقد ساروا بموجب السنة القمر ية . فلنذكر إذن أن تقوم الشهداء

) خروج ٢٦ : ١٩ ــ ٢١
) ثم ز يدت الى سبعين يوما
ا ملاخى ٤ : ٢

تقويم فرعونى رتبه آباؤنا من عهود سحيقة وسلموه لنا فأخذناه ضمن التراث الضخم الذى تركه لنا الفراعنة .

وليست أسماء شهور السنة « القبطية » هى وحدها أسماء فرعونية ، بل إن هناك عدداً وفيراً من قديسينا يحملون أسماء فرعونية أصبحت على مر الزمن معتبرة « قبطية » . وعلى سبيل المثال لا الحصر ــ نقدم الأسماء التالية : باخوم ــ بيشوى ــ بيمن بيموا . بيجول . مينا . شنودة . هذه لا تزال نلفظها بأصلها الفرعونى ، فى حين أن هناك غيرها قد أضفنا عليها « يوس » اليونانية مثل أمون ــ أمونيوس ، بفنوتى ــ بفنوتيوس . وهذه الأسماء جمعت بين الفرعونية واليونانية حينما كان الشعبان وثنيين . والواقع أن آباءنا لم يجدوا أية غضاضة فى استعمال هذه الأسماء لأن العبرة فى الإيمان بالقلب . ومن أعجب الأمثلة أن شاول قد ترك اسمه العبرانى واتخذ « بولس » وهو اسم رومانى . لأن رسول الأمم هدف الى أن يتعاطف مع الأمم حتى فى الاسم الذى شاء أن يشتهر به بينهم !

ولم يكتف آباؤنا بالاحتفاظ بأسمائهم الفرعونية فقط بل استمروا يدرسون الحضارة الفرعونية و يقرأونها بالهيروغليفية لعدة قرون . ونتبين هذا الواقع من الحادثة التى ذكرت بصدد تحويل السيرابيوم الى كنيسة .

ونحن للآن ، وإن باعدت القرون والأحداث بيننا و بين « أجدادنا » الفراعنة ، نتزين بالعنخ و بالخرطوش فنجمع بينها و بين الصليب . وهذا هو الجمع اللائق بمن يتحدثون عن انتسابهم

معناها « مصر يون » ــ إنها الاسم الأول لمصر الفرعونية الذى كان « هاكوبتاح » ثم حوله اليونانيون الى « ايجيبتوس » ، وفى العصر العربى تحولت الى قبط (١) .

هذه كلها حقائق واقعية يليق بنا أن نعرفها ونستوعبها ونعتز بها .

٧ ــ ومن الروعة بمكان أن كنيستنا المحبوبة هى أول كنيسة عرفت مكانة السيدة العذراء وأكرمتها بوسائل مختلفة . وهى أيضا أول كنيسة لقبت السيدة العذراء بوالدة الإله : ثيئوتوكس . و يرى بعض الدارسين أن المصريين تفهموا معنى الأمومة العظمى لأنهم عبدوا الإلهة ايزيس وابنها هورس ــ وكثيراً ما صوروهما معا أو عملوا لهما التماثيل التى تجمع بينها ولكن ــ ألا تتوفر الرموز فى العهد القديم إشارة الى السيدة العذراء ؟ ومادامت الأسفار الإلهية قد تضمنت « ظل

---

(١) راجع مثال لجورجى صبحى (بالانجليزية) نشره فى مجلة الآثار القبطية ، العدد الرابع سنة ١٩٣٨ ، ص ٥٩ ــ ٧٠ . و يذكر فيه أيضا أن الكلمات الدارجة مثل مقطف . قفص . بلاص . قفة . شادوف ساقية ، وأيضا حين تقول الأم لطفلها تشجيعا له على المشى . « تاتا » وحين يطلب هو اليها أن تحمله فيقول « هوبا » ــ هذه كلها كلمات فرعونية صميمة ــ والمذكور منها هنا مجرد أمثلة .

الخيرات العتيدة » فلماذا لا تتضمن التعاليم الفرعونية ــ هى أيضا ــ هذا الشبه وهذا الظل ؟ ولماذا لا تكون الأم ايزيس وابنها هورس صورة صريحة وإشارة عليا الى الأم العظمى التى أصبحت أم ابن العلى ؟

٨ ــ وكم هو لائق بنا أن نعرف أن مصرنا الحبيبة كانت ملجأ الشبع والأمان لجميع من لجأوا إليها فإبراهيم أبو الآباء . حين كان لا يزال اسمه ابرام ، و بعد أن ناداه الرب ليخرج الى المكان الذى سيريه إياه ، حينذاك حدث جوع عظيم « فانحدر ابرام الى مصر » . وعند مشارفها أوصى أمرأته أن تقول إنها أخته حرصاً على حياته ــ أو هكذا تصور . ونفذت وصيته وكذبت موافقة له . و يقول الكتاب إن ابراهيم ناله خيراً كثيراً . ولكن لما علم فرعون بالواقع عاتب إبراهيم ثم قال له : « هوذا امرأتك . خذها واذهب » (١) . ولنقف أمام هذا الموقف قليلا لنتساءل : أى الرجلين كان أكثر شرفا وصراحة ؟

ومادمنا بصدد ابراهيم علينا أن نذكر أيضا أن الله ناداه وأعطاه علامة الختان وهو « أممى » إذ كان من « أور الكلدانيين » . و يتوسع رسول الأمم فى توضيح هذا الواقع إذ يقول : « فآمن ابراهيم بالله فحسب له براً .... أفهذا التطويب هو على الختان فقط أم على الغرلة أيضا ؟ لأننا نقول إنه حسب لإبراهيم الإيمان براً . فكيف حسب . أو هو فى الختان أم فى الغرلة . ليس فى الختان بل فى الغرلة .... » (٢) وإن كان الختان هو العهد الذى أوصى الله إبراهيم به فهنا أيضا نجد أن الختان كان عادة شائعة بين المصريين الفراعنة . ومن هذا المنطلق نقول إنهم لم يكونوا « ذوى غلفة » (٣) . وهناك رسومات منحوتة عند أسفل جدار من جدران معبد « الرمسيوم » تصور لنا فرعون فى عربته بينما رجاله منشغلون فى ختان الأسرى .

ومنذ أن لجأ إبراهيم الى مصر توالى التجاء أولاده ــ جيلا بعد جيل ــ الى البلد المرحب باللاجئين اليه : الى مصر التى عرف الجميع حسن ضيافتها : فلقد عاد إليها اليهود مراراً وتكراراً بعد خروجهم منها . فلماذا عادوا ؟

٩ ــ فمثلا حارب الملك داود هو وقائد جيشه يوآب مملكة آدوم وانتصر عليها وخربها وكان ملكها ــ هدد الأدومى ــ غلاماً صغيراً آنذاك ولكنه نجح فى أن يهرب هو ورجال آدوميون من عبيد أبيه الى أرض مصر . لأن يوآب وجنده افنوا كل ذكر فى أدوم . فلما وصل اللاجئون الى فرعون أعطاهم بيتا وأرضا وعين لهم طعاماً .

وكما تربى موسى فى بيت ابنة فرعون هكذا تربى هدد الأدومى مع أولاد فرعون . ولابد

---

(١) تكوين ١٢ : ١٠ ــ ٢٠
(٢) رومية ٤ : ٣ و٩ ــ ١٠
(٣) أعمال ١١ : ٢ ــ ٣

من أنه كان ذا مقدرة خاصة وإلا فكيف أزوجه ملك مصر من أخت زوجته ؟ وعلى ذلك نشأ جنوبث ابن هدد الأدومى بين بنى فرعون (١) ــ وحمل اسماً فرعونيا أيضا ، وهنا أيضا يتشابه مع موسى الذى حمل اسماً فرعونيا صميما .

ثم تزوج سليمان ابن داود من ابنة فرعون ، و يصف لنا الكتاب المقدس الدار التى هيأها لها بقوله : « وعمل بيتا لابنة فرعون ... كل هذه من حجارة كريمة كقياس الحجارة المنحوتة منشوره بمنشار من داخل ومن خارج من الأساس الى الإفريز ومن خارج الى الدار الكبيرة ... » (٢) فلماذا صاهر سليمان الملك ــ فى كل مجده ــ فرعون مصر ؟ بلا شك إنه استهدف تعزيز مركزه بين الشعوب التى كان شعبه عائشا فى وسطها .

ولنقف برهة لنرى امتداد مصر خلال أميراتها . فالأميرة ــ أخت كارامات زوجة شيشق فرعون مصر صارت ملكة على اليهودية بوصفها زوجة سليمان ، وخالة الملكة كارامات كانت ملكة الأدوميين بوصفها زوجة هدد الأدومى . وحينما مات الملك سليمان هاجم فرعون (زوج هذه الملكة التى تبرز بين عائلتها) أرض اليهودية دفاعا عن حق الأمير الذى ولدته « ابنة فرعون » (٣)

ولا يغيب عن بالنا أن هدد الأدومى عاد الى وطنه بعد موت داود و يوآب فأقام الله منه خصما لسليمان تبعا لما ورد فى الكلام عنه عندما هرب الى مصر ثم رجع عند اكتماله سن الرجولة .

و بعد ذلك نسى سليمان طريق الرب وأقام المذابح على المرتفعات لمختلف الآلهة مما أثار نفوس الغيورين على حفظ الوصايا الإلهية . ومن بين هؤلاء يربعام الذى لاقاه النبى أخيا الشيلونى وتنبأ له بأنه سيملك على عشرة أسباط إذ لن يبقى الله لابن سليمان غير سبطى يهوذا و بنيامين . و بالطبع احتدم غيظ سليمان الملك ضده وأراد قتله . فلم يجد ــ هو أيضا ــ غير مصر ملجأ الأمان . ثم عاد وأنشأ مملكة إسرائيل التى جعل السامرة عاصمة لها . وقد ظلت الدولتان فى خصومة مستمرة ترددت أصداؤها فى لقاء السيد المسيح بالمرأة السامرية (٤) . ولقد ساند فرعون مصر صديقه يربعام ضد مملكة يهوذا وغلبها وحمل معه كل كنوز بيت الرب وكنوز بيت الملك .

ومن أبرز اللاجئين الى مصر أرميا النبى مع عدد غير قليل من مواطنيه هرباً من سبى بابل (٥) وهذا معناه أنهم فضلوا المعيشة فى بلادنا على الوقوع تحت السبى . ومن المعروف أن

---

(١) ١ ملوك ١١ : ١٤ ــ ٢٢

(٢) ١ ملوك ٧ : ٨ ــ ٩

(٣) « مصر واسرائيل » لفليندرز پيترى (بالانجليزية) ص ٦٨

(٤) ١ ملوك ١١ : ٢٣ ــ كل الأصحاح الثانى عشر ، يوحنا ٤ : ١ ــ ٣٩

(٥) أرميا ٤١ : ١٥ ــ ١٨ ، ٤٣ : ٥ ــ ٧

أرميا قضى بقية حياته بين المصريين . فللآن يشار الى تل قريب من كنيس اليهود الواقع خلف كنيسة أبى سرجة بمصر العتيقة ــ يشار اليه باسم « تل أرميا » ــ إذ أنه من المتواتر أنه دفن تحت هذا التل .

وتحفنحيس التى يذكرها أرميا النبى كانت بمثابة حصن بناه ملوك مصر لولاتهم عند حدود الدلتا ناحية الصحراء الشرقية . وعن هذا الحصن يتردد الصدى على طول الأجيال : فهناك تل عليه أطلال توصف بأنها « قصر بنت اليهودى » . وكلمة « قصر » تشير الى أنه كان مسكناً للأشراف وليس مجرد لحامية عسكرية . وهكذا وصلتنا ذكرى الدار الملكية لبنات ملك يهوذا على أثر خراب أورشليم (١) .

١٠ ــ وحدث أن انتهك الملك انتيوخس (ملك سوريا) حرمة الهيكل فى أورشليم فقام المكابيون فى وجهه وحاربوه من سنة ١٦٨ ــ سنة ١٦٤ ق . م . ولما تمكنوا أخيراً من الانتصار عليه طهروا هيكلهم وبنوا داخله مذبحا من حجارة غير منحوتة وأعادوا الصلاة داخله . وإعلانا لهذا كله حددوا عيداً سموه « عيد التجديد » (أو عيد النور) فى فترة قريبة جداً من يوم عيد الميلاد المجيد ــ فكأنهم بهذا العيد لمحوا مقدماً مجىء النور الحقيقى . أما عيد التجديد فقد احتفى به رب المجد إذ قد ذهب الى الهيكل يومذاك (٢) .

ثم حدث ــ كما هى العادة ــ إن تداعى مجد المكابيين فاغتصب منهم رئاسة الكهنوت رجل غريب . ووسط الاضطراب والضيق أخذ أونايا الشاب المكابى يخشى على حياته . ولم يجد ــ هو أيضا ــ غير مصر ليهرب الى أمانها . وبعد أن قضى بضع سنوات قدم طلبا الى الملك يرجو منه السماح له ببناء هيكل على نمط الهيكل فى أورشليم ولكن أقل حجما . فلما حصل على الإذن أقام الهيكل ولو أنه بناه على شكل حصن فى المنطقة التى كانت تضم قديماً مدينة « بو ياستس » (بمنطقة عين شمس) . وقد لفت نظر المنقبين فى السنوات الأخيرة تل رملى عال يسميه أهل المنطقة « تل اليهودية » . فكشف التنقيب عن هيكل أونايا وكل مشتملاته وعن أطلال مدينة اسمها « أورشليم الصغيرة » . وقد لحظ المنقبون أن درجات السلم الموصل الى الباب الرئيسى للهيكل مبنية بالضبط على نظام السلم فى هيكل أورشليم ليتمكن الصاعدون فوقها من الترنم « بمزامير المصاعد » (٣) .

وليس من شك فى أن هذا الكشف قد أوضح مدى الأمان والاستقرار الذى استمتع به أونايا المكابى هو وبنو قومه فى مصر . وهكذا نرى مرة أخرى (ضمن المرات العديدة) سخاء

---

(١) « مصر واسرائيل » ص ٨٤ ــ ٩٠ (والكتاب مطبوع فى لندن سنة ١٩١١)

(٢) يوحنا ١٠ : ٢٢ ــ ٢٣

(٣) « مصر واسرائيل » ... ص ٩٨ ــ ١١٠ ، ومزامير المصاعد هى ! ١٢٠ ــ ١٣٤ ، وكانوا يترنمون بها أثناء صعودهم درجات السلم ، ولم يتمالك معطى الإذن من السؤال كيف يقبل أونايا بناء الهيكل فوق أرض وثنية !

مصرنا الحبيبة وحسن معاملتها لمن جاءوها طلباً للأمان والسلام ، حتى متى كان هؤلاء اللاجئون من اليهود الذين تسببوا فى أذيتها.

ولننزل الآن الى أقصى الجنوب ــ الى أسوان ــ لأن اليهود عاشوا من شمال مصر الى جنوبها . فقد عثر المنقبون على برديات عديدة مكتوبة كلها بالأرامية (اللغة المتداولة فى سوريا وفلسطين آنذاك) ، ومن هذه البرديات نتبين قول أشعياء النبى « فى ذلك اليوم يكون فى أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان وتحلف لرب الجنود » (١) فكل قسم ورد فيها هو « قسم باسم ياهو أو يهوه .

وأعجب ما وضح من هذه البرديات أن الشخصية الرئيسية فيها شخصية امرأة اسمها اميبتايا بنت مخصييا . و يبدو أنها هى وعائلتها و بنو قومها كانوا يعيشون على جانب من الطمأنينة والثراء . وكان لهذا المجتمع قانونه المستمد من الناموس ومحكمته الخاصة . و بين مختلف المستندات نجد قسما بالإلهة « ساتى » إلهة الشلالات وهنا أيضا نجد أنه كان لليهود قبل سنة ٥٢٥ ق . م . هيكلهم ومذبحهم وطشوطهم من الذهب والفضة . وكان لهذا الهيكل سبع بوابات وسقف من خشب الأرز. وفى هذه البقايا دليل على الحرية التى استمتع بها هذا المجتمع اليهودى فى مصرنا الحبيبة (٢) .

كذلك نعلم أن جماعة اليهود بالاسكندرية كانت فى العصر البطليموسى تأتى فى المرتبة الثانية بعد جماعة أورشليم فى العلم وحتى فى الفلسفة وقد برز منهم فيلو الفيلسوف و يوسيفوس المؤرخ .

١١ ــ و بعد هذه الجولة مع بنى إسرائيل خلال التجآتهم الى مصرنا المحبوبة على مدى قرون طويلة لنتمعن الأثر الذى أحدثته مصر داخل قلوبهم وعقولهم : سواء منهم الذى عاش فيها والذى ظل مستقراً فى بلاده .

وأول ما نلحظه هو أن وصية الله لهم بأن لا يصنعوا تمثالاً منحوتا لم يحفظوها بالدقة المزعومة . ففى قدس الأقداس ، فى هيكل سليمان (مفخرتهم حتى الآن) وقف تمثالان ضخما للشيروبيم ارتفاع كل منهما سبعة عشر قدماً وقد أفرد كل منهما جناحيه على مدى ثمانية أقدام من كل ناحية . وقد تزينت الجدران كلها بالشيروبيم و بالنخيل والورود . ولم يقتصر وجود التماثيل على قدس الأقداس وحده بل شمل صحن الهيكل المكشوف حيث وقفت تماثيل نحاسية للعجول ، بينما تزينت الطشوط بالأسود والعجول و بينها الشيروبيم ــ وهذه كانت منحوتة نحتا بارزاً . وقبل ذلك بأجيال كان لميخا النبى تمثال من الفضة المسبوكة وآخر من النحاس المنصهر

---

(١) أشعياء ١٩ : ١٨

(٢) المرجع نفسه ص ٩٣ ــ ٩٦

للشيرو بيم فى هيكله الخاص الذى أقامه ليهوه حيث كان يقوم لاوى بالخدمة فيه . بل إن هوشع النبى حين كان يتنبأ عما سيحدث من الضيق أعلن : « لأن بنى اسرائيل سيقعدون أياماً كثيرة بلا ملك و بلا رئيس و بلا ذبيحة و بلا تمثال و بلا أفود وترافيم » (١) والأفود والترافيم كانت من الأصنام (٢) ، وقد ظل سبط دان يتعبد لهما لغاية وقت السبى .

فاذا ما تأملنا تابوت العهد وهو محفوظ داخل قدس الأقداس نجد شيرو بيم يحرسه على كل من ناحيتيه.ونقف هنا لندرك الى أى مدى أوحى الله بتوجيهاته الى المصريين : فكل مراكب الآلهة كانت تحميها الإلهة « معت » إلهة البر والعدل بجناحيها المفردتين تغطى بهما هذه المراكب وتحميها . وقد يبرر البعض هذا التشابه بأن « معت » كانت حقيقة لا مادية ظللت مصر كلها فلم تكن قط إلهة محلية ومع ذلك فمصدر الوحى واحد .

كذلك نرى الوصية بالحرص فى التعامل ، فيقول موسى للشعب « لا ترتكبوا جوراً فى القضاء . لا فى القياس ولا فى الوزن . ولا فى الكيل . ميزان حق و وزنات حق . وايفة حق . وهين حق تكون لكم » (٣) . وخلف هذه الوصية نرى الميزان المقام فى محكمة الإله أوزورريس حيث كان يضع قلب الإنسان فى كفة مقابل ريشة الحق (ريشة معت) لمعرفة مدى صلاح صاحب هذا القلب (٤) . بل وللآن تحمل امرأة معصوبة العينين ميزانا على واجهات المحاكم .

١٢ ــ ومن الواجب أن ندرك بأن الأفكار والتعبيرات التى تسود أى شعب هى الأساس لمعرفة هذا الشعب واتجاهه الدينى . فمقابل « الثيرابوتاى » (أى المتأملين فى الإلهيات) من المصريين وقف الإسينيون اليهود (٥) . ولأن غالبية قراء الأدب الدينى يجهلون الفترة الواقعة ما بين ملاخى ومتى فإنهم يظنونها فترة ركود على مدى أربعة قرون . ومع ذلك فهذه الأربعمائة سنة فاضت بالتخمر الروحى نتيجة للتبادل الثقافى بين شعوب الشرق الأوسط . ولقد أظهرت الحفريات بأن الكتابة عن الحكمة بوصفها قوة شخصية بدأت تنتشر إبتداءً من القرن الثانى قبل الميلاد . وكانت قبل ذلك صفة ذهنية ــ قلبية محضة . ونعرف من أيوب أن « الله عنده الحكمة والمقدرة . له المشورة والفطنة ... » (٦) ولأن سفر أيوب ورد بين أسفار العهد القديم تظن الغالبية أن أيوب عبرانى . ولكنه يعلن أنه من أرض عوص ــ وعوص من بنى أرام . إذن فأيوب أرامى . وهذا الأرامى يعلمنا الصبر والرضى بأحكام الله ، وفوق هذا يعلمنا معنى الأبوة الواعية الساهرة .

---

(١) هوشع ٣ : ٤

(٢) تكوين ٣١ : ١٩

(٣) لاويين ١٩ : ٣٥ ــ ٣٦

(٤) « مصر وإسرائيل » ص ٦٠ ــ ٦٣

(٥) Therapeutae, Essenes

(٦) أيوب ١٢ : ١٣

وأيوب سابق على الميلاد العجيب بما يزيد على عشرة قرون وهو كغيره من الأوائل اعتبر الحكمة عطية إلهية .

وهذه النظرة الى الحكمة ظلت سائدة الى ما بعد عصر ملاخى النبى . وهى الحكمة التى تهذب بها موسى عندما تربى فى قصر ابنة فرعون . وحينما أراد كاتب سفر الملوك أن يبرز حكمة سليمان قال إن حكمته « فاقت كل حكمة المصريين » (١) . ونتبين حكمة هذا الملك من سفر الأمثال . ومع ذلك فقد ضمنه أقوالاً وصفت بأنها « أقوال الحكماء » ــ فأثبتت الأبحاث فيما وصل الينا من التعاليم الفرعونية أن هؤلاء الحكماء المشار اليهم ليسوا سوى بنى مصر (٢) .

وقبل أن نبين حكمة المصريين الأولين ومدى أثرهم على الفكر العبرى فى التشابه الواضح بين الكثير من التعبيرات فى الأسفار الإلهية ــ نقول إن الحكمة أصبحت فى فكر عدد كبير من الحكماء المسيحيين تشير الى السيدة العذراء ــ أى أن الحكمة ــ فى نظرهم ــ تجسمت فى العذراء المطوبة من جميع الأجيال . وبهذه النظرة فسروا قول يشوع ابن شيراخ عن الحكمة « الرب اقتنانى منذ الأزل »(٣) على أنها تشير الى السيدة العذراء .

وجدير بنا أن نعرف أيضا أن التوراه قد كتبت فى العصور المتقاربة من زمن الميلاد العجيب على ورق البردى . ومازالت النسخ المحفوظة منها فى مجامع اليهود الى الآن على شكلها الأصلى ــ أى أنها فى ملفات وليس فى كتب . ونرى إشارة واضحة الى هذا الواقع فى قول الانجيل عن رب المجد : « وطوى السفر .... » (٤)

١٣ ــ وهناك حكمة فرعونية تقول : « إن الكلمات التي يتفوه بها الإنسان شيء وما يعمله الله شيء آخر » . وفى هذه الكلمات نسمع المثل الحالى : « المرء فى التفكير والرب فى التدبير » . وأقوى من هذا نستطيع أن نسمع من وراء الحكمة الفرعونية بولس الرسول وهو يعلن فى قوة » : يالعمق غنى الله وحكمته وعلمه . ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء ....(٥)

ولكى يبرز التشابه بجلاء نورد التعاليم الفرعونية جنبا الى جنب مع بعض ما جاء فى الأسفار الإلهية .

---

(١) املوك ٤ : ٣٠

(٢) أمثال ٢٤ : ٢٣ الى آخره

(٣) هذا السفر ضمن الأسفار القانونية الثانية التى سجلت بعد أيام عزرا النبى ، والآية المذكورة وردت فى ١ : ٤ وأيضا فى أمثال ١٨ : ٢٢ ــ ٢٣

(٤) « حكمة قدماء المصريين » لوليم ماكويتى (بالانجليزية) ص ٤ ، لوقا ٤ : ٢٠

(٥) رومية ١١ : ٣٣

ولنلتفت قبل ذلك الى مصر منذ أن بدأ الإنسان المصرى يتفحص مظاهر الحياة حوله المتوازية فى الوقت عينه مع مظاهر الموت . وهذه البداية ترجع الى عهد سحيق سابق على قيام دولة موحده تحت حكم ملك قوى . وفى ذلك العهد السحيق تنبه الذهن المصرى الى أنه لابد من أن تكون هناك بداية للحياة . فتابع تفكيره هذا وأعطانا مفهومه لهذه البداية التى سجلها فيما بعد والتى وصلت إلينا لحسن الحظ،واذا ما نحن تأملنا هذا المفهوم ندرك الى أى حد تشابه مع ما ورد فى سفر التكوين . ولنلحظ هنا أن السجل المصرى سابق على عهد كتابة هذا السفر المقدس الذى كتبه موسى النبى .

وفى المفهوم المصرى لم يكن « فى البدء » غير برية خربة مظلمة وغير الماء ومن هذا الفراغ الخاوى بزغ الإله أتوم : بزغ بنفسه من نفسه . وحالما بزغ أوجد الإله شوإله الهواء الذى يتطلبه كل مخلوق حى . ثم أوجد الإلهة تفنيت الممتلة للماء المحيط بالأرض والحامل لها . فكلما حفر حفار وجد الماء تحت الأرض . ولم يكن شوإله الهواء فحسب بل كان عليه أن يرفع الجو (أو السماء) ، كذلك نشأ معه الآلهة جيب ونوت ، وأخيراً أوزوريس وايزيس وست ونفثيس . وهؤلاء الآلهة كونوا تاسوعاً مقدساً اعتبر بعد ذلك وحدة واحدة . وبهذا المفهوم تصور المصرى القديم الكون على هيئة الإله شو واقفا ساندأ بيديه الجسد المتمدد للإلهة نوت إلهة الجو بينما جيب إله الأرض مستلق عند قدميها ([1]) .

ثم إن المصريين كانوا يحرصون على نظافة أجسادهم كل الحرص . فكان على الكاهن أن يحلق كل جسده قبل أن يدخل الهيكل . وهذا هو السبب فى أنه كان يضع لحية مستعارة كما كان يغطى رأسه . وكان الأثرياء منهم يستحمون عدة مرات يوميا ويمضمضون أفواههم قبل الأكل وبعده . ولعنايتهم القصوى بالنظافة كانوا يستعملون العطور والأطياب وعصارة الزهور ([2]) .

كذلك كانت الموسيقى جزءً من الثقافة الفرعونية . فمثلا نرى فى مقبرة الشريف ناخت فتاة تعزف على الرباب ومعها زميلتان إحداهما تعزف على قيثارة وأخرى تزمر بمزمار . وكانت الطبول والصنوج والصاجات أيضا ضمن الآلات المستعملة عندهم . و يتردد صدى هذه الآلات فى المزمور المائة والحادى والخمسين حيث ينادى المرنم على الناس بأن يسبحوا الله بمختلف الآلات الموسيقية وهناك ما يزيد على الخمسين مزموراً ورد فى أعلاها أنها قيلت على نوع من الموسيقى ــ فمثلا جاء عن المزمور الخامس والخمسين أنه « لإمام المغنين على ذوات الأوتار » ، فى

---

(١) عن كتاب « حكمة قدماء المصريين » (بالانجليزية) لوليم ماكويتى ص ١٠ ــ ١١

(٢) المرجع نفسه ص ١٥ ، قارن بين هذا الكلام و بين ما جاء فى عدد ٨ : ٧ و٢١ ، مزمور ٤٥ : ٦ ــ ٧ و٥١ : ٧ ، أمثال ٩ : ٢٧

حين أن المزمور الثانى والستين تغنوا به « على يدوثون » والتاسع والستين « على السوسن » ــ الى غير ذلك من الآلات .

١٤ ــ على أننا الآن سنرجع الى الوراء ونطوى القرون الطويلة لنرى متى بدأ المصريون تفكيرهم الروحى ثم الى أى حد طبعوا تفكيرهم هذا على التفكير الروحى العبرانى . ونحو هذا الهدف نتخذ من الكاتب الأمريكى هنرى چيمز بريستد شاهداً للحق الذى تتبعه بدقة لسنين طويلة فهو كان قد تعلق بتاريخ مصر فأراد أن يعرفه من مصادره الأصيلة و بالتالى تعلم الهيروغليفيه ــ بل أجادها . ثم وضع بعد ذلك عدداً من الكتب فى تاريخ مصر الفرعونية . إلا أن أهم هذه الكتب هو كتاب « فجر الضمير » الذى يتتبع فيه النمو الروحى فى مصر من عهد الأهرامات الى دخول المسيحية . وخلال اشتغاله بهذه الأبحاث كان يحضر الى مصر سنويا لينقل النصوص ثم يترجمها .

وفى مقدمة هذا الكتاب يقول : « يعرف كل واحد منا أن التقدم العلمى الذى نعيشه الآن هو نتيجة لتطور طويل طويل . ولكن القليل منا يعرف أن التطور قد شمل أيضا تلك القوة النفسية التى نسميها الضمير . ومما يؤسف له أن الإنسان أنتج الأسلحة الهدامة من عهود سحيقة فى حين أن الضمير لم يبرز كقوة اجتماعية لها فاعليتها إلا من حوالى خمسة آلاف سنة . أفلا يليق بنا أن نهدف الى إنماء هذه القوة الى أن تصبح تعبيراً عن المودة وحسن الجوار بحيث تستطيع أن تخنق « الانسان العتيق » فينا ؟ وكفاحنا أقل صعوبة من كفاح آبائنا : فهم قد أوجدوا الضمير فى عالم لم يكن فيه غير التطاحن ، فى حين أننا سنبنى على ما أوجدوه هم » .

« ويحق لنا أن نتساءل : كيف حدث أن الإنسان المتوحش استطاع أن يلمح قبسا من المتطلبات الأدبية ؟ كيف تمكن عالم خال تماماً من الرؤيا العليا للشخصية من أن يصل الى الإصغاء باحترام للصوت الداخلى ؟ ومقابل الميزات الملموسة المرئية للانتصار المادى كيف بلغ الإنسان الى تفهم القوى الداخلية اللامرئية ؟ والإجابة على هذه ستتضح من تتبعنا للمستندات القديمة التى تكشف لنا عن فجر الضمير وعن أقدم المثاليات التى وصلت بالإنسان الى الوعى بالشخصية فى حد ذاتها . وليس من شك فى أن تتبع هذا النمو العجيب سيعطينا رؤيا جديدة من الأمل فى عصرنا العصيب . ويهمنى أن يعرف القراء أننى تتبعت هذا النمو لمدة تزيد على الأربعين سنة فلعل الشباب المفكر يجد فيها تقوية لعزيمته » .

« والمفكرون المعاصرون يجدون معنى عميق فى كون الإنسان الأول قد توصل بنفسه الى السلوك الإدبى من خلال اختباراته اليومية . فالإنسان البدائى قد حول الحياة من عالم لا أدبى الى عالم ذى قيم داخلية تعلو على المادة : عالم وعى لأول مرة معنى الشخصية وسعى الى بلوغها . واكتشاف الإنسان لهذه القيم ولأهميتها لا يمكن مقارنته بأى تقدم علمى على الإطلاق إذ أن

التقدم فى كافة المجالات قام على شىء موجود . أما الوعى بالشخصية وقيمتها وبأهمية السلوك الأدبى فقد كان أشبة بالخلق . ولا يستغرب أحد من هذا القول فالخالق أبدع الإنسان على صورته ومثاله وبالتالى أودع فيه المقدرة على أن يخلق هو أيضا . وهذه المقدرة التى أودعها الخالق داخل الإنسان تمكنته من « خلق الضمير » .

« ولقد تقدم الإنسان البدائى تقدما جذريا حين بدأ لأول مرة يسمع همسات من عالم جديد : عالم بدأ ينبثق أمامه من داخله . كانت هذه الهمسات بوقا يناديه مختلفا تماماً عن نداء الجوع أو الحرص على البقاء ، بوقا يستثير انفعالاته المتباينة ويهيب بكل قواه وكأنه يحرك كل الجيش الرابض داخله »

« وبالدرس والتنقيب نكتشف أن وادى النيل هو الميدان الأول الذى برز منه الإنسان ظافراً من الصراع الطويل مع الطبيعة للدخول الى ميدان ذلك الصراع المحير الرهيب مع نفسه ! ويجب أن لا ننسى أن التحول من البدائية الى المدنية بكل إنتاجاتها المذهلة فى الفن والمعمار كان يجب بدايته لأول مرة من الصفر . ومغزى ظهور المدنية على ضفاف النيل ليس قاصراً على عظمة المبانى وحدها بل فى كونها تطورت على مدى ما يزيد من ألف سنة الى الصعود للمرة الأولى على أرضنا العالمية نحو مثالية اجتماعية ونحو التعبير عن شىء لم يكن له وجود » .

« وإن من يعرف قصة التحول من حياة الصيد والقنص البدائية على ضفاف النيل الى قيام الملوك ورجال الدولة والمعماريين والمهندسين والصناع والحكماء والأنبياء الاجتماعيين فى مجتمع منظم تفنن فى إقامة الأعاجيب فى وقت كانت أوروبا لا تزال فى عصرها الحجرى ولم يكن هناك من يعلم ولا من يلقن ــ إن من يعرف هذا كله يعرف قصة قيام حضارة ذات رؤيا أدبية عميقة لأول مرة فوق الكرة الأرضية » .

« ونحن معشر الغربيين على وعى بأن الحضارة المصرية البابلية هى المحرك الذى دفع الى الأمام بالحضارة الأوربية . ولكن القليلين هم الذى يعرفون الواقع الهام للغاية فى تاريخ الدين والتعاليم الأدبية وهو أن الثقافة المصرية البابلية هى أيضا المحرك الأول الذى دفع بالحضارة العبرية الى الأمام . ومثل هذه الاعتبارات توضح لنا على الفور الدرجة المذهلة لوحدة صعود الإنسان الحضارى. وفى تاريخ الدين والتعاليم الأدبية نكتشف فجأة أن الحضارة العبرية بنصوصها الهامة البعيدة الأثر هى إحدى المراحل المتأخرة للنمو الإنسانى القديم ، وقد سبقتها أجيال من الإنتاج والابتكار والخبرة الروحية على ضفاف النيل والفرات . فيجب علينا إذن أن نكيّف عقولنا للواقع وهو أن تراثنا الأدبى نشأ فى وقت أقدم بكثير من استقرار العبرانيين فى

فلسطين ، وأنه وصلنا من عصر لم يكن العهد القديم فيه قد ظهر للوجود . « والشمس التى تشرق والشفاء فى أجنحتها » قد أشرقت على مصر قبل إشراقها فى فلسطين بألفى سنة . (١)

∴

بعد هذه المقدمة المستفيضة من المصرولوجى الأمريكى لنتمعن بعض ما أورده فى كتابه الذى يقع فى أربعمائه وعشرين صفحة من الحجم المتوسط .

١ ــ حينما تداعت الدولة القديمة بعدما أنتجت من الأمجاد المعمارية ومن الحياة فى ظل حكومة قوية امتد سلطانها من الاسكندرية الى أسوان ــ حينذاك بدأ أول عصر من التشاؤم وخيبة الأمل . وصور الأنبياء الاجتماعيون صورة من الفوضى والفساد بتعبيرات غاية فى العنف . وعلى الرغم من ذلك كان هناك حكماء من بنى مصر لم يفقدوا الأمل فحملوا لواء أول حركة نحو العدالة الاجتماعية . ومن العجب بمكان أن مثاليتهم اتخذت شكل الدعوة المسيّانية إذ قد أعلنوا إيمانهم بالحاكم البار الذى سيأتى : ملك يفتتح العهد الذهبى للعدالة التى تشمل جميع الناس . ونحن نعلم أن هذا الايمان نادى به الأنبياء العبريون بعد ذلك الوقت .

ولقد تخلفت عن العصر القديم ــ فى سنة ٣٤٠٠ ق . م . رسالة أطلق عليها الدارسون اسم « الدراما المنفيسية » والتى عبر فيها كاتبها المجهول عن أن الأعمال اليومية فى العمل وفى الصناعة تتناغم مع المبدأ بأن « القلب يصدر عنه الفكر ، والتعبير يصدر عن اللسان » . والأهم من هذا هو أن هناك سلوكا مرضى عنه وسلوكا مغضوب عليه . « والحياة توهب للمسالم ــ أى لمن يحمل السلام ، والموت يوهب للمذنب أى لمن يحمل الذنوب » وتوضيحا لهذا المبدأ قيل بأن ثمة « من يعمل ما هو مستحب » و « من يعمل ما هو مكروه » .

وبالبحث والتدقيق وصل بعض المصرولوجيين الى أن من مميزات الإله الشمس « الحكم » و« الفهم » . وبما أن الفرعون كان سليل الإله الشمس فقد كان رجاله يحيونه بقولهم : « إن الحكم هو الذى فى فمك والفهم هو الذى فى قلبك » . ولأول مرة فى التاريخ الإنسانى رأى الناس فى الفرعون رؤيا مجيدة للشخصية البارزة .

٢ ــ ولقد اقترنت كل هذه التطلعات بالرغبة فى الخلود . وفى سبيل تحقيق هذه الرغبة كان الكاهن يقف وسط أهل الميت وأصدقائه و يقول : « لن تفنى عظامك ولن يمرض لحمك . وأعضاؤك ليست بعيدة عنك » . ولكن مهما بلغت هذه التوجيهات من أثر فإنها لم تكن كافية إذ لابد من أن تعود الحياة الى الجثة الهامدة : وهذا الإحياء من عمل الآلهة . لهذا يؤكد الكاهن إن « إلهة السماء ستقيمك . ستضع رأسك فى موضعها من جديد . ستجمع لك كل عظامك . ستوحد

---

(١) من الشيق أن نلحظ أن آباءنا حين أرادوا أن يقربوا معنى الثالوث المقدس قد اتخذوا من الشمس أوضح مثل له .

لك أعضاءك . وستأتى اليك بقلبك الى داخلك » . ومع هذا كله فقد كان لابد من استعادة المقدرة على استعمال القلب والأعضاء والتحكم فى الجسد : فلم يصبح « با » (أى نفسا حية) بمجرد موته . فالإله أوزوريس نفسه حين مات تحول الى نفس حية نتيجة للصراع الذى قام بين ابنه هورس من جهة و بين إله الشر من الجهة الأخرى . ومع أن هورس انتصر إلا أن عدوه (الذى هو قاتل أبيه) نجح فى أن يقتلع إحدى عينيه . واستخلصها هورس منه وأعطاها لأبيه . وحينما تسلمها أوزوريس أصبح نفساً حية . ومنذ أن رضى هورس بتقديم عينه الى أبيه صارت كل تقدمة توهب من أجل ميت توصف بأنها « عين هورس » . ومن الشيق أيضا أن نعرف أن مصر بأكملها كان يطلق عليها « عين هورس » ــ لأن هذه العين ازدادت قيمة فى كونها تقدمة ابن محبة فى أبيه .

و يتضح من التفاصيل الناتجة عن وجوب تقدمة أن المصريين حاولوا استعادة تكوين الجسم الميت بعمليات خارجية عنه وتحت ترتيب الأحياء وضبطهم . والخلاصة لهذه المجهودات أن الجسد بعد استعادته الحياة يعود العقل للعمل والقلب للوعى لكى يصل الميت الى أن يكون « نفسا » : أو « با » . وبهذا الكيان يعيش مرة أخرى كشخص يمتلك كل القوى التى تمكنه من البقاء والحياة فى العالم الآخر .

وفى بداية هذه الحياة الجديدة التى لم يتعودها تسانده روح حارسة تعرف بأنها « الكا » ــ هذه الروح جاءت الى الوجود مع الطفل فور ولادته ولازمته طوال حياته وسبقته الى العالم الآخر لتستقبله هناك وتبصره بكيفية المعيشة فى العالم الآخر . ألا نرى هنا مبدأ الملاك الحارس المعين لكل واحد منا ؟

٣ــ ولقد تركت الأهرام بصماتها على القريب والبعيد بوصفها بناء هندسى : فتحت هذا الجبل من الصخور، وكنتيجة لضخامتها ومصارعتها الفناء ، نظر الفرعون بثقة الى الأمام : الى خلود جسده و بالتالى خلود نفسه المرتبطة به بغير فكاك (١) . وهنا يجدر بنا أن نعرف أن الشكل الهرمى كان رمزاً من أعلا الرموز قداسة إذ يعلو من فوق بقايا الملك ليحى الشمس التى كان الفرعون من نسلها . والهرم يمثل قمة العقيدة فى أن التزود المادى له فاعلية كاملة فى أن يحصل صاحبها على السعادة فيما بعد : عقيدة الإنسان بأن سيطرته على المادة ستوصله الى إحراز الخلود .

والدراما المنفيسية تعبر عن الرغبة الملحة الجامحة فى الخلود . فتتكرر فيها العبادات المؤكدة

---

(١) وإذا ما تمعنا هذه العقيدة على ضوء ترابط الأجيال وتصاعد الفكر الروحى أمكننا أن نسمع خلفها تلك الجملة الرائعة فى تعبيرها ــ فى قداسنا ــ التى تبصرنا بأن السيد المسيح بتجسده « ألف ووحد بين السمائيين والأرضيين والشعب مع الشعوب والنفس مع الجسد .... »

للخلود . ومن بين الكلمات التى ترددت اصداؤها منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد الكلمات التالية : « إن الملك تيتى لم يمت الموت . لقد أصبح فرداً مجيداً فى الأفق ، « هيا أيها الملك يونيس ! لم تغادرنا ميتا ولكنك غادرتنا حيا » ، لقد غادرتنا لكى تحيا . لم تغادرنا لكى تموت ! وكثيراً ما تنتهى هذه العبارات بقولهم : « أنت لا تموت . قف . إرفع نفسك . أنت حى . أنت حى . فارفع نفسك » . ثم أضيفت الى هذه كلها عبارة : « أيها الفرد العالى بين النجوم اللافانية إنك لن تفنى الى الأبد » . وحين كان لابد من مواجهة المحتوم اللامرغوب فيه كانوا يقولون عنه « الإرساء » أو « الوصول » . ومن العجب بمكان أن هؤلاء الذين عاشوا منذ ما يقرب من ستة آلاف سنة حين كانوا يعبرون عما كان للناس من هناءة فى القديم كانوا يشيرون إليها بقولهم : « قبل أن يأتى الموت » . أفلا نرى فى هذا التعبير الحنين الكامن فى عمق النفس الى ذلك الوقت السابق على السقوط ؟ وهل يمكن أن نُحن العمق الى تلك الفترة من غير الحنين الى مجىء المسيا حتى إن كان الحنين اليه غامضا غائصا فى الأعماق ؟

وكل هذه العبارات القديمة مكتوبة فى قالب شعرى : فى مقاطع يتألف كل مقطع منها من بيتين ، وفى توازيات . بالضبط كما ورد مثل هذا الشكل الشعرى فى المزامير بعد ذلك بقرون . فمثلا حين يرون الفرعون فى خيالهم صاعدا الى القبة الزرقاء يهتفون : « إن الغيوم تلبد الجو ، والنجوم تتساقط ، وترتج الكواكب ، وترتعد عظام كلاب جهنم ، و يصمت البوابون ، حين يرون الملك يونيس ــ منبثقا كنفس » .

٤ ــ ومن الشيق أن نعرف أنّ نصوص الأهرام تصف العالم الآخر بالقبة الزرقاء وتصوره مكاناً للهناءة وتكاد أن تنعدم فيها الإشارة الى الظلمة والشقاء : وتبرز من هذه النصوص عقيدتان :

السبب فى أن المدخل الى الهرم الأكبر يشير مباشرة الى النجم القبطى . وتوقع حياة مجيدة فيما بعد فى بهاء حضرة الإله الشمس هو الموضوع العظيم الذى يتكرر فى نصوص الأهرام .

والرجال الذين أنشأت أياديهم هذه النصوص امتلأوا زهوا وفرحاً فى التوسع وفى التكرار بعبارات متجددة ومتباينة عن تصويرهم للسعادة التى سيتمتع بها الملك إذ يجد الرعاية والحراسة والإعالة والإكرام فى مملكة الاله الشمس .

٥ ــ ومن أعجب ما جاء فى نصوص الأهرام تسبحة تلمح الى فاعلية رفع البخور كوسيلة للتعاطف مع الآلهة ، وهذا ما جاء فيها : « لقد أوقدت النار ، والنار تسطع ، ولقد وضع البخور فوق النار ، والبخور يسطع ، إن عبيرك يأتى الى الملك يونيس أيها البخور ، وعبير الملك يونيس يأتى اليك أيها البخور ، إن عبيركم يأتى الى الملك يونيس أيها الآلهه ، وعبير الملك يونيس يأتى اليكم أيها الآلهة . إن الملك يونيس معكم أيها الآلهة ، إنكم مع الملك يونيس أيها الآلهة ، إن الملك يونيس

يعيش معكم أيها الآلهة ، إنكم تعيشون مع الملك يونيس أيها الآلهة ، إن الملك يونيس يحبكم أيها الآلهة ، أحبوه أنتم أيها الآلهة » .

ونرى هنا تعبيراً عن الألفة الباطنية التى تربط بين الآلهة و بين الملك خلال البخور.

ومن أهم الينابيع التى يستقى منها الملك غذاءه فى مملكة رع هى « شجرة الحياة » فى وسط جزيرة سرية فى حقل التقدمات ، وهو فى بحثه عن هذه الشجرة يعاونه صقر بديع أخضر اللون : له أربعة وجوه (١) ، وهو يقف فى مقدمة المركب الحاملة الملك الميت نحو العالم الآخر.

وفى وصفهم للرحلة الى الأبدية الخاصة بالفرعون بيبى (من الأسرة الثالثة) (٢) يسجلون : « لقد شق الملك بيبى طريقه كالصياد ، لقد حيا آلهة « الكا » ، لقد مضى الى الجزيرة العظمى وسط حقل التقدمات التى يجعل الآلهة الطيور تطير فوقها : والطيور هى الكواكب غير الفانية . فيعطون هذا الملك بيبى شجرة الحياة التى يقتاتون منها لكى يعيش هو أيضا منها فى الوقت عينه » .

هذه كلها تعبيرات عن الإيمان برع الإله الشمس . أما أوزوريس فقد ارتبط بالمياه و بالتربة و بالنماء . ذلك لأن المصرى كان يصور أفكاره وعقائده فى أشكال ملموسة محسوسة . فالعقيدة بأوزوريس هى الايمان بقوة الحياة التى لا تفنى ، و يتضح هذا الايمان من أنهم حتى حين كانوا يصورونه جثة هامدة يصورونه بأعضائه التناسلية . فحيوية التربة التى تضعف أحيانا وتقوى أخرى والتى ترتبط بالمياه اللازمة للحياة وتخصب الأرض : هذه كلها هى أوزوريس . ومن هنا أيضا تبرز العقيدة فى خلود الحياة . ففى النصوص الأهرامية يهتفون : « كما يعيش أوزوريس هكذا يعيش هذا الملك يونيس ، وكما أنه لا يموت هكذا لا يموت الملك يونيس ، وكما أنه لا يهلك هكذا الملك يونيس لا يهلك » . و بصيغة أخرى يهتفون أيضا : « أيا إيها الملك بيبى — ما أجمل هذا : ما أجمل هذا الذى منحك إياه أبوك أوزوريس ! لقد أعطاك عرشه ... »

ومن التقابل العجيب أن المصريين صوروا أشعة الشمس على شكل سلم صاعد الى السماء (٣) به يستطيع الميت أن يصعد الى فوق .

٦ — ونصوص الأهرام تكشف عن ناحية هامة فى الحياة الانسانية : إنها توضح أن الصلات العائلية هى العنصر الأولى فى نشأة الأفكار الأدبية وفى نموها . و يقول عدد غير قليل من

---

(١) ألا تتضح وحدة الوحى الإلهى فى وجود « شجرة الحياة » فى العالم الآخر للمصرى كما نراها فى الفردوس (فى سفر التكوين) ؟ وايضا قارن بين هذا الصقر و بين الحيوانات الأربعة المذكورة فى حزقيال ١ : ٦

(٢) هذه الأسرة حكمت ما بين سنه ٣٠٠٠ — سنة ٢٥٠٠ ق . م .

(٣) ألا يذكر هذا السلم بسلم يعقوب : تكوين ٢٨ : ١٢ ، وهنا أيضا نتبين وحدة الوحى الإلهى — وهذه الوحدة تتماشى مع تعليم رب المجد فى أن الناس إخوة وأن آباهم السماوى لا يفرق فى معاملتهم .

المستشرقين إن الحضارة المصرية امتدت الى عصور طويلة نتيجة للترابط العائلى الذى تميزت به ، وبه أيضا تفوقت على الحضارات القديمة المختلفة . وأبرز فضيلة أوردتها نصوص الأهرام هى ولاء الأولاد لوالديهم . ألا نسمع ترديد هذه الفضيلة بعد ذلك بأجيال فى الوصية القائلة : « أكرم أباك وأمك ... »

ولم يقتصر الولاء البنوى على إكرام الوالدين فى حياتهم بل شمل إكرامهم بعد مماتهم . ففى اسوان مقبرة للشريف سيبنى حارس الحدود المصرية الجنوبية عند الشلال الأول . فلقد قام ميخو والده برحلة الى السودان للتجارة ، فأنقض عليه بعض من المتوحشين وقتلوه . وحالما سمع سيبنى بمقتل أبيه خاطر بالسفر الى المنطقة الخطرة وانتصر على قاتلى أبيه واستخلص منهم جثته . ثم حملها معه الى مقر إمارته حيث قام المحنطون بعملهم . وقد سجل حوادث الرحلة على جدران مقبرته التى جمعت بين مومياء أبيه وبين مومياته . والكتابة التى نقشها وسط الرسوم تبين قوة الرباط الذى ربط بينه وبين عائلته (١)

ولهذه المقبرة مثيلاتها فى منطقة سقارة ــ وكلها تشهد بما ساد الأسرة المصرية منذ حوالى خمسة آلاف سنة من المحبة والوفاء . وهذه المقابر لها أهمية كبرى فى تاريخ السلوك الأدبى : إنها ــ بالإضافة الى أقوال الحكماء ــ تعطينا الدليل القاطع على أن جذور الوعى الأدبى مغروسة فى الحياة العائلية (٢)

ولكى ندرك مدى الترابط العائلى نتمعن وصفاً رائعا قدمه المستشرق اليوجوسلافى تشورنى . فقد عثر وهو ينقب عن الآثار فى منطقة الأقصر مع بعثة انجليزية على القرية التى كان يعيش فيها الصناع المسئولون عن زخرفة المقابر . وفى هذه القرية وجدوا سجلات بأسماء العمال : كل عامل وعائلته وبما أن العمل الذى كانوا يؤدونه عمل شاق فقد كانت كل جماعة منهم تشتغل ستة شهور ثم يحل غيرها محلها . وكل جماعة منهم تتألف من خمسمائة عائلة . وأروع ما فى هذا الكشف أنه شمل أسماء العمال وعائلاتهم على مدى خمسة قرون ، وهذا معناه أنه تضمن أسماء . خمسمائة ألف عائلة وهذه العائلات التى بلغ عددها نصف مليون كانت كلها تتألف من الزوج وزوجته وأولادهما . ولم يشذ وسط هذا الجمع الوفير غير رجل واحد كانت له زوجتان ! والى جانب اسمه أورد هذا الرجل صلاة حارة الى الآلهة كى يسامحوه لأنه خان عهد زوجة شبابه ! (٣)

---

(١) خروج ٢٠ : ١٢ ، تثنية ٥ : ١٦ ، بل إن إكرام المصرى لوالديه لم يقتصر على هذه الحياة ، كما هو واضح .

(٢) « فجر الضمير » ــ ص ١١٨ ــ ١١٩

(٣) « الدين المصرى القديم » ــ طبع فى لندن سنة ١٩٥٢ وحتى الأشراف تشهد مقابرهم على أن كلاً منهم ارتبط بزوجة واحدة ، ولئن شذ بعض الملوك « الفراعنة » عن هذه القاعدة لأسباب سياسية إلا أن وريث العرش كان يجب أن يكون ابن الزوجة الملكية .

وهذه الحقيقة ــ حقيقة الوحدة الزوجية تظهر بجلاء فى الرسومات التى شاء الأشراف أن يزينوا بها قبورهم . ولكنها ــ كغيرها من حقائق الحياة الفرعونية ــ قد تاهت وسط الجهل و بالأخص وسط الدعايات المغرضة . على أن الحقيقة لابد من أن تبرز فى النهاية .

٧ ــ ولنتأمل الآن بعض التشابهات ما بين التعاليم الفرعونية و بين الأسفار الإلهية :

نشيد الأنشاد

أنا لحبيبى والى اشتياقه ــ تعال ياحبيبى لنخرج الى الحقل ولنبت فى القرى . لنبكرن الى الكروم لننظر هل أزهر الكرم . هل تفتح القعال . هل نور الرمان هنالك أعطيك حبى . اللفاح يفوح رائحةً . وعند أبوابنا كل النفائس من جديدة وقديمة .
ذخرتها لك ياحبيبى

٧ : ١٠ ــ ١٣

أنشودة فرعونية

تغنت شابة لحبيبها تقول : فى أغنيتى زهور . وهى ترفع النفس . أنا أختك الأولى . أنا لك مثل الفدان الذى زرعته بنفسى وملأته زهوراً وكل نبات ذى عبير . وفى وسطه فسقية حفرتها يدك وسط رطوبة نسيم الشمال : إنها مكان جميل حيث أمشى و يدك فى يدى . فيفرح قلبى و ينتعش جسدى بوجودنا معاً . حسن لى أن أسمع صوتك . فرؤيتك خير لى من الأكل والشرب

من انجيل لوقا البشير ٦ : ٤٥

الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح . والانسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر فإنه من فضلة القلب يتكلم فمه .
(راجع أيضا متى ١٢ : ٣٤)

من تعاليم آنى :

إن قلب الإنسان أشبه بمخزن الغلال ملىء بالأجوبة على كافة أنواعها : فتخير الصالح منها وتكلم بها ، واترك ما هو غير صالح مخزونا .

تثنية ١٥ : ٧ و٩

فلا تقس قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير ... أعطه ولا يسوء قلبك عندما تعطيه .

عن أونخ شيشونكى :

لا تصنع شراً بإنسان فتدفع بغيرك الى الشر لا تقس قلبك نحو أى شخص فى إمكانك أن تتشفع فيه .

أمثال ٩ : ٧ ــ ٨

من يوبخ مستهزئا يكسب لنفسه هواناً ... لا توبخ مستهزئا لئلا يبغضك . وبخ حكيما فيحبك

وعن الحكيم عينه .

لا تعلم الجاهل لئلا يكرهك . ولا تعلم من لا يريد أن يصغى . لا تستشر حكيما فى أمر صغير بل استشره فى ما هو كبير

تثنية ٢٥ : ٤

لا تكم الثور فى دراسة . وقد ردد بولس

السلوك الواجب على صاحب أرض . أن يترك

الرسول هذه الوصية فى اكورنثوس ٩ : ٩ ،....
وذهبت راعوث الى حقل بوعز فالتقطت وراء الحصادين (٢ : ١٧ – ١٩) . بينما يتساءل أرميا النبى
« لو أتاك القاطفون أفما كانوا يتركون غلالة ... » (٤٩ : ٩)

الثور الدارس من غير كمامة فيستطيع أن يلتقط ما يجده هنا أو هناك . و بعد أن يحمل الحاصدون الغلال الى البيدر يأتى النسوة والأولاد و يلتقطون المتبقى فى الحقل
(عن كتاب حكمة المصريين ص ١٤ – ١٥)

ومن العجب بمكان أن حكماء الفراعنه أدركوا بأن الإنسان مخلوق على صورة الله ، وهذا يتضح من المقارنة الآتية :

التكوين :
بعد أن أوجد الله كل المخلوقات كأجناسها ، « ورأى الله ذلك أنه حسن . وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا » .
(١ : ٢٥ – ٢٦)

عن الكاتب القديم :
صالحة هى الرعاية التى يتمتع بها الناس قطعان الله . فقد صنع السماء والأرض تبعاً لرغبتهم . وأوجد نسمة الحياة فى أنوفهم إنهم صورته وقد برزوا من جسمة .

زكريا ٨ : ١٧ –
ولا يفكرن أحد فى السوء على قريبه فى قلوبكم . ولا تحبوا يمين الزور
لاويين ١٩ : ١٢

الحكيم أمينوموپى
لا تحادث الإنسان الغاش فذلك مكرهة لله ولا تفصل ما بين عقلك ولسانك . إن الله يكره تعويج الكلام كما يكره النفاق .

لا تحلفوا باسمى بالكذب فتدنس اسم إلهك
تثنية ٣٣ : ٢٧

عن أونخ شيشونكى
لا تحلف باطلا حين تكون فى شدة لئلا يكون لك أشد .

الإله القديم ملجأ والأذرع الأبدية من تحت
من رسالة يعقوب ٣ : ٢ – ١٢
إن كان أحد لا يعثر فى الكلام فذاك رجل كامل قادر أن يلجم كل الجسد أيضا ... اللسان ... هو شر .. به نبارك الله و به نلعن الناس ...
أمثال ٦ : ٢٠ – يا ابنى احفظ شريعة أبيك ولا تنس وصايا أمك ، ١٣ : ٣ – من

عن أمينوموپى أيضا
ضع نفسك بين يدى الله . وهدؤك سيغلب العدو
قال الفرعون مريكيرى لابنه :
كن ماهراً فى الكلام لتستطيع أن تنجح ، لأن قوة الإنسان هى لسانه ، والحديث أقوى من أية معركة . والماهر لا يهاجمه المتعلمون ، ومتى كان متعلما لا يناله أذى .

يحفظ فمه يحفظ نفسه ، ١٦ : ٢٤ ــ الكلام الحسن شهد عسل حلو للنفس وشفاء للعظام . مزمور ٤٤ : ٢١ ــ أفلا يفحص الله عن هذا لأنه هو يعرف خفيات القلب ، ... وداخل الإنسان وقلبه عميق ــ مزمور ٦٤ : ٦ ، أمثال ١٠ : ٨ ــ حكيم القلب يقبل الوصايا ، ١٤ : ٣٠ و٣٣ ــ حياة الجسد هدوء القلب ، وفى قلب الفهيم تستقر الحكمة ، مزمور ٣٧ : ٣٠ ــ فم الصديق ينطق بالحكمة ولسانه يلهج بالحق ، ٤٥ : ١ ــ لسانى قلم كاتب بديع الكتابة

أمثال ١٣ : ٣ ــ من يحفظ فمه يحفظ نفسه .

أمثال ١٦ : ١ ــ للإنسان تدابير القلب ...

أمثال ١٥ : ١ ــ الجواب اللين يصرف الغضب

أمثال ٢١ : ٢٣ ــ من يحفظ فمه ولسانه يحفظ من الضيقات نفسه ، أمثال ٢٥ : ١٥ ــ اللسان اللين يكسر العظم

تثنية ٢٨ : ٥٠

أمة جافية الوجه لا تهاب الشيخ ولا تحنّ الى الولد

اتيموثيئوس ٥ : ١ ــ ٢

لا تزجر شيخا بل عظه كأب والأحداث كإخوة والعجائز كأمهات والحدثات كأخوات

الجامعة ١ : ١٣ ، ٧ : ٢٥

ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة ... ، درت أنا وقلبى لأعلم ولأبحث

أمثال ١٣ : ٢٠

والحق يأتيه معجونا تماما تبعا لأقوال الآباء . انسج على منوال آبائك أولئك الذين سبقوك . تأمل كلامهم المسجل كتابة افتح الكتاب واقرأ وانقل التعليم الى نفسك لكى لا تكون ماهراً فقط بل وتصبح حكيما أيضا .

من تعاليم الحكيم آنى :

إن للقلب واللسان السلطة على كل الأعضاء ، على اعتبار أن القلب موجود داخل كل جسم واللسان داخل كل فم : فى الآلهة والإنسان والحيوان بل حتى فى الحشرات . فالقلب يتفهم الأفكار واللسان يأمر بها بكل حرية (١) . ورؤية العيون وسماع الآذان وتنفس الأنف تبلغ قراراتها الى القلب . والقلب هو الذى ينتج كل إدراك واللسان يردد كل ما تفكر به القلب . وبهذه الوسيلة يتم كل عمل وكل صنعة . فالأمر قد محصه القلب ثم أعلنه اللسان ووضع موضع التنفيذ لتحقيق كل الأمور

عن آنى أيضا :

لا ترد على إنسان وهو غاضب بل تباعد عنه . كلمه برفق وكن هادئا أمام من يتكلم بغضب . لأن الكلمات الناعمة دواء لقلبه .

وعنه أيضا :

لا تظل جالساً بينا غيرك واقف و بالأخص متى كان شيخا حتى ان كنت أكبر منه مقاماً .

وعنه أيضا

إن كنت قد تفحصت الكتب ودخلت الى أعماقها فاجعلها فى قلبك ، وحينذاك سيكون كل ما تنطق به صالحا .

(١) هذا التعبير دليل على أنهم كانوا يتمتعون بالحرية

المساير الحكماء يصير حكيما

أمثال ٢٩ : ٢

إذا ساد الصديقون فرح الشعب

أمثال ١٤ : ٢٣

فى كل تعب منفعة

رسالة يعقوب ١ : ١٢

طوبى للرجل الذى يحتمل التجربة

أمثال ٢١ : ٣ ــ

فعل الحق والعدل عند الرب أفضل من الذبيحة

هوشع ٦ : ٦ ــ إنى أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات .

أمثال ٨ : ١٧

أنا أحب الذين يحبوننى والذين يبكرون الى يجدوننى

تثنية ٧ : ٩ ــ ١٠

فاعلم أن الرب إلهك هو الله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه الى ألف جيل . والمجازى الذين يبغضونه بوجوههم ليهلكهم . لا يمهل من يبغضه بوجهه يجازيه .

من رسالة يعقوب ٢ : ٢ ــ ٤

إن دخل الى مجمعكم رجل بخواتم ذهب فى لباس بهى ودخل أيضا فقير بلباس وسخ فنظرتم الى اللابس اللباس البهى وقلتم له اجلس هنا حسنا وقلتم للفقير قف أنت هناك أو اجلس تحت موطىء قدمى فهل لا ترتابون فى أنفسكم

مزمور ٣٤ : ١٩

كثيرة هى أحزان الصديقين ومن جميعها ينجيهم الرب .

وعنه أيضا

اتخذ لنفسك الحكيم الصالح صديقا

عن أونخ شوشنكى

العظيم الذى يسلك بوداعة يحترمه الشعب

وعنه أيضا

إن أنت سرت فوق طريق صنعته يداك فستصل الى المكان الذى تريده

وعنه أيضا

من كان ذا قلب وثيق وقت التجربة فلن تعصف به

اوصى الفرعون مر يكيرى ابنه :

مقبولة أمام الله فضيلة الإنسان العادل اكثر من العجل المسمن لذاك الذى يفعل الشر .

وعن الملك مر يكيرى أيضا

أضع شيئا لله . قدم له التقدمات لأنه يكرم ذاك الذى يصنع شيئا من أجله .

وعنه أيضا

ما أجود ما يجد الناس من رعاية . إنهم قطيع الله . لقد صنع السماء والأرض وفقا لرغبتهم . لقد أروى عطشهم بالماء . لقد خلق الهواء لتتنفسه أنوفهم . وهو يتطلعون نحو السماء باشتياقاتهم . لقد صنع لهم البهائم والطيور والأسماك لتغذيتهم ولكنه يعاقب أيضا : لقد قتل أعداءه ، وعاقب أبناءه لذاك الذى فعلوه حينما تعادوا .

وعنه أيضا

لا تكرم ابن رجل صاحب درجة رفيعة اكثر من إكرامك للرجل المسكين ، ولكن قس كلا منهما بأعماله وصاحب الصالح منهما .

أرميا ٢٠ : ١٢

فيارب الجنود مختبر الصديق

أمثال ٦ : ٢٠ ــ ٢٣

يا ابنى احفظ وصايا أبيك ولا تترك شريعة أمك . إربطها على قلبك دائما قلد بها عنقك . إذا ذهبت تهديك . إذا نمت تحرسك . وإذا استيقظت فهى تحدثك . لأن الوصية مصباح والشريعة نور وتوبيخات الأدب طريق الحياة .

أمثال ٦ : ٢٤ ــ ٢٥

لحفظك من المرأة الشريرة . من ملق لسان الأجنبية . لا تشتهين جمالها بقلبك . ولا تأخذك بهدبها

أمثال ٢٣ : ٢١

لا تكن بين شريبى الخمر بين المتلفين أجسادهم

١ كورنثوس ٤ : ١٢

ونتعب عاملين بأيدينا

متى ٥ : ٤١

من سخرك ميلا واحداً فاذهب معه اثنين

وعنه أيضا :

لا تكن شريراً فمن الصلاح أن تكون رؤوفا . خلد آثارك عن طريق محبة الناس لك ... ولكن أفتح عينيك جيداً : فالمتكل على الله هو ذاك الذى تكثر أحزانه .

من تعاليم آنى

يا ابنى لقد أعطيتك أمك التى حملتك . وفى حملها إياك جازت أتعاباً كثيرة تحملتها من غير أية مساعدة منى . وبعد مر الشهور ولدتك ووضعت نفسها تحت نير إرضاعك . وحين ذهبت الى المدرسة حملت الخبز والبيرة يوميا الى معلمك . وأنت الآن رجل ولك زوجة فاجعل عينك على ولدك وربه كما ربتك أمك . وإياك أن تصنع شيئا يؤلم أمك .

لئلا ترفع يديها نحو الله فيسمع شكواها و يعاقبك .

عن أونخ شيشونكى

احترس من أن تتزوج من أمرأة شريرة لئلا تربى أولادك فى طريق الشر

عن الحكيم آنى

لا تدخل الى حضرة السكير حتى لو كان فى معرفته شرفاً

عن الوزير بتاهوتب

اعمل واتعب فى كل الأشياء وافعل أكثر من المفروض عليك . لا تضيع وقتك الذى يمكنك أن تقضيه فى العمل

٨ــ ولقد أوردنا هذه التشابهات كأمثلة فقط لأن هناك الكثير غيرها . و بتمعن هذه التعاليم يقول لنا أحد الباحثين : « حينما بلغت عبادة الشمس قمتها سنة ٢٥٠٠ ق . م . لم تكن تتضمن شرحاً موجزاً للتطلعات المسبانية العبر ية فقط ، بل تضمنت ثالوثا مقدساً ، وتشر يعا أدبيا من الوصايا ، وايمانا بالمحاسبة والخلود ، فكانت هذه التعاليم الطليعة للتوقع الذى برز بعد ذلك بما يقرب من ألفى سنة فى العهد القديم . ودراسة التصاعد الذى حققه المصر يون بمرورهم من عبادة المرئيات الملموسات الى الوعى بالله الواحد غير المرئى وغير الملموس هى دراسة لتار يخ مصر من بداية السابقة على التار يخ الى حضارته الكبرى .... فلقد عاش فى مدينة « أون » كهنة يبحثون فى الفلك والفلسفة والعلوم الخاصة بما وراء الطبيعة »(١) .

و يسترسل الكاتب عينه فيقول : « إن اللاهوت المصرى القديم بكامله مشبع بالتعليم عن الثالوث والبعث ، وتقديم الحساب ، والفداء ، والصليب وايز يس ترضع ابنها : كل هذه المفاهيم ترجع الى عصور سحيقة تاهت فى القدم . إذن فالمسيحية كانت فى دارها فى مصر » (٢) .

---

(١) عن كتاب « القاهرة » (بالانجليز ية) لچيمز ألدر بدر يج ص ١٨ ، واسم « أون » هو الصيغة العبر ية للاسم الفرعونى « إى ــ إن رع « ومعناه » مسكن الشمس »، ثم حوله اليونان الى لغتهم فقالوا عن هذه المدينة « هليو پوليس » أو « مدينة الشمس

(٢) شرحه ص ٢٨

٩ــ وكم هو لائق بنا أن نعرف الى أى مدى بلغ التبصر الروحى عند الفراعنة . فمثلا يوجه هاركوف أمير مقاطعة فيلا الحديث منقوشاً على واجهة مقبرته . وهذا الأمير كان من أوائل الرواد داخل القارة الأفريقية إذ قد عاش سنة ٢٦٠٠ ق . م . وهذا بعض ما جاء فى حديثه : « لقد عبرت بمن لم تكن عنده معدية .... فيا أيها الأحياء المارون بمقبرتى فى نزولكم وصعودكم ــ إننى سأتشفع فى العالم الآخر بكل من يأتى بتقدمة . وأنا متسلح وجدير وشخصية مجيدة لأنى كاهن يعرف ما يتحدث به لسانه ... وإننى لم أقل قط كلمة شر ضد أى إنسان أمام صاحب السلطة لرغبتى فى أن أجد الخير حين أقف فى حضرة الإله العظيم .

و يعلق بريستد على هذه الاعترافات بقوله : « إن هذه الأقوال ــ يوصفها أقدم دليل على المسئولية فيما بعد الموت ــ تثير الخشية والإعجاب . فقد ظلت البلاد الأخرى طوال ألفين من السنين بعد ذلك تستودع الصالح والشرير مملكة الموتى على قدم المساواة . فالحكمة المصرية القديمة صورة ذهنية فريدة حتى لكأنها شعاع من النور يخترق الظلمات (١) ثم يستكمل : « وواضح أن متطلبات العدالة والبر كانت أقوى سلطة من الملك نفسه إذ كان عليه هو أيضا أن يقف أمام القضاء الإلهى و ينال ما يستحقه دون محاباه »

ولم يكتف الحكماء بتوكيد البر والعدل بل أوصوا أيضا : « إنه صانع حاذق ذاك الذى يعرف أن يتكلم فى المحافل ، لأن الحديث أشق صنعة .... إجعل قلبك (عقلك) عميقا وتفكر طويلا وتكلم قليلا . فالمنصت يحبه الله . » (٢)

ومن الأهمية بمكان أن ندرك أنه من سنة ٣٥٠٠ ــ سنة ٢٥٠٠ ق . م . ــ أى على مدى ألف سنة جاز الإنسان اختباره للقومية لأول مرة على هذه الأرض . إنه عرف معنى التقدم فى شكل قومى موحد : تطور ينمو باستمرار استطاعت من خلاله دولة لأول مرة فى حياة الإنسان أن تفلح فى إنشاء بنيان من الحياة المنظمة بها من القوة والرسوخ ما جعلها تمتد على ألف سنة . وهذه الرؤيا المثيرة للدولة المنظمة هى التى ساهمت فى أن تضفى معنى أوسع شمولية لكلمة « معت » ، حتى لم تعد تقتصر على العدالة والحق والبر بل شملت وجوداً واقعيا للمجتمع وللحكومة ونظاماً أدبيا للعالم متمثلا فى الفرعون . فمعت هى القوة التى يدعمها الفرعون ضد الفوضى والظلم والخداع . وبهذا النمو المطرد تكونت للمرة الأولى مملكة ذات قيم أدبية جامعة . وبالتفهم أن لهذه المملكة حاكماً الهيا بدأ المصرى بالسير نحو التوحيد . فليس بغريب أنهم أول شعب آمن بالله الواحد .

ولقد كانت خطوة جسورة تلك التى خطاها المصرى نحو الإدراك بأن الهناءة بعد الموت ليست مرتبطة بحالة ما بالحالة الاجتماعية للإنسان هنا . فالفرعون نفسه سيؤدى الحساب عن

---

(١) « فجر الضمير » ــ ص ١٢٦

(٢) شرحه ــ ص ١٣٢

أعماله ولأول مرة بزغ فى ذهن الإنسان أن الخلود أمر لابد له من أن يبلغه من داخل نفسه . أفلا نرى فى هذه الإدراك إشارة خافقة الى قول رب المجد : « ها ملكوت الله داخلكم » (١) .

١٠ ــ كذلك يعلن ملاخى النبى : « و يأتى بغتة الى هيكله السيد الذى تطلبونه ... ومن يحتمل يوم مجيئه » ؟ و يتساءل اپيوار الكاهن المصرى : « أين هو الآن ؟ هوذا قوته غير مرئية » ، وهو يلقى هذا السؤال بعد أن وصف الملك المثالى الذى يشتهى أن يراه والذى قال عنه : « سيسكب الرطوبة على النار ، سيكون راعيا لجميع الناس ، ليس فى قلبه شر ، سيجمع قطيعه الجائع المبعثر . » وحتى إن لم يحدد اپيوار موعد مجىء هذا الملك المشتهى فانه يرسم لنا صورة لشخصيته ولعمله : صورة خلابة من البهاء وهذا التطلع مسپانى من غير شك . إنه امتداد بالبصيرة نحو المسيا سابق على التطلع العبرى بألف وخمسمائة سنة .

١١ ــ ومع توقعاتهم للملك المرتقب كان وعيهم بالعدالة والبر والحق مرهفا إذ كانوا يضعونه فى الميزان مقابل « ريشة معت » . فالعدالة فى نظرهم هى عدم الانحياز التام : هى معاملة الإنسان القريب من الفرعون على قدم المساواة مع البعيد عنه ، المعروف والمجهول ، الأمير والفلاح . ومثل هذه العدالة التامة تضمن للوزير بقاءه فى منصبه ، فهابة الوزير ترجع الى عدم انحيازه فى كل موقف . وكان الفرعون يؤكد له وللقاضى بأن « هيبة الوزير ــ والقاضى ــ هى فى أنه منصف ، كذلك يؤكد بأنه « يحب الخجول والأعزل أكثر من المتشامخ والمغرور» . ومن هذه التوجيهات يتضح بأن الضمير فى العصر الإقطاعى الفرعونى لم يعد مجرد قوة تؤثر على سلوك الفرد فقط ، إنه أصبح لأول مرة فى التاريخ الإنسانى قوة اجتماعية نافذة . وهذا معناه أنه نشأ ما يمكن أن نسميه بالضمير المجتمعى ، وهذا بدوره أدى الى بزوغ عصر الشخصية . وحتى لو فرضنا أن الأشراف بالغوا فى تصوير مثاليه مسلكهم فيما تركوه من النقوش والبرديات فلا يمكننا أن ننكر أنهم استهدفوا هذه المثاليه . وإذ نتمعن تعاليم إپيوار وتنبئوات نفرر وهو وقصة الفلاح الفصيح يجب أن ندرك أنهم اتخذوا من كتاباتهم الأسلحة لأول صراع نحو السلوك المتسامى .

وهذا السلوك المتسامى لم يعد مجرد عقيدة دينية كما لم يعد مبدأ اجتماعيا فقط بل أصبح أيضا السياسة الملكية المعلنة رسميا . فقد أدرك الجميع كل الإدراك بأنه أمام المحكمة الإلهية يجب على العظماء وذوى السلطان أن يتوقعوا المعاملة عينها التى يقضى بها الإله على الفقراء والمحرومين . وليس من شك فى أن هذه العقيدة هى التى أوصلت الى الوعى بأن الإنسان البار الصالح هو المقبول عند الله وليس الإنسان صاحب الثروة أو السلطة . وهنا نستطيع القول بأن المصلحين من حكماء الفراعنة قد أفلحوا فى تأميم السلوك المتسامى . فالإله الشمس يقول : « لقد خلقت الأهوية الأربعة ليستنشقها كل إنسان تماماً كأخيه . لقد أوجدت المياه ليستقى منها الشحاذ مثل ما يستقى منها الملك . لقد صنعت كل إنسان على شاكلة أخيه ، ونهيتهم عن أن يعملوا الشر

---

(١) شرحه ص ١٤٤ ــ ١٥١ ، لوقا ١٧ : ٢١

ولكنهم عملوا لشر قلوبهم » . وهنا نستطيع أيضا أن نقول بأن هذا التسامى الروحى الفرعونى قد أدى الى تأميم الأبدية أيضا (١) .

١٢ ــ وفى عصر الامبراطورية الفرعونية أصبح الإله الشمس إله العالم بأسره : فحينما يعيش الناس يهتم بهم . وهو يتداخل فى شئونهم وحاضر معهم ، وهم يشعرون بمسئوليتهم نحوه وهذه السلطة الإلهية بتصاعد نفوذها فى القلوب كانت فى طريقها الى الشمولية التامة . ولأول مرة فى التاريخ الإنسانى بزغت أمام أعين سكان وادى النيل الأقدمين رؤيا الله الواحد للعالم كله . وهذه الرؤيا فى الواقع كانت قد بدأت تتراءى منذ عهد الأهرام إذ نجد بين نصوصها لقب « اللامحدود » للإله .

وإننا لنجد فى عهد أمونهوتب الثالث ــ فى القرن السادس عشر قبل الميلاد أنه قد عاش أخوان توأمان كانا مهندسين معماريين ــ اسم الواحد سوتى واسم الثانى هور . وقد تركا لنا نصبا تذكاريا موجوداً الآن فى المتحف البريطانى ، جاءت فيه تسبحة للإله الشمس نقتطف منها مايلى : « أنت الصانع الماهر الذى كون نفسه بنفسه ، فريد فى صفاتك ، متجول فى الأبدية ــ فوق طرقات حيث الملايين تخضع لك .. خالق الكل ومعطيهم طعامهم ... أم صالحة للآلهة وللناس .... » وواضح من هذه التسبحة أن المصريين قد خطوا الخطوة الجريئة الحاسمة : خطوة الإيقان بإله واحد لجميع الناس . ومن الشيق لنا ــ نحن أولاد القرن العشرين ــ أن نلاحظ أنهم وصفوا هذا الإله الشامل للوجود بكلمة « أم صالحة » . ألا نرى فى هذا التعبير وعيا مثاليا لوضع الأم فى المجتمع الفرعونى ؟ إنه تعبير يتضمن أعمق الإدراك للحنان الإنسانى .

وأمونهوتب الثالث هو أبو إخناتون ، ومن خلال الكتابات والنقوش التى وصلتنا عنه وعن عصره نعرف أن زوجته الملكة تيا كانت ذات مكانة كبرى فى مجتمعها . بل إن هناك من المؤرخين من هم مقتنعون بأن الحركة الروحية التى كانت لدى ابنها من الشجاعة ما جعلته يقف مقابل كهنة أمون وسلطانهم ــ هذه الحركة قد تعلمها من أمه ، فهو فى هذا الموقف كتيموثيئوس الذى أخذ إيمانه عن أمه . على أية حال فالتسبحة التى رفعها سوتى وهور أشبه بمقدمة للتوسع الروحى الذى تحقق فى شخصية إخناتون الذى يذهب الى أعلا مستوى فيهتف فى تسبحته العظمى : « أنت الأب والأم لكل الذى خلقت » . فهو قد جمع بين حنان الأب وحنان الأم معاً فى سعيه نحو وصف الله الواحد راعى جميع الناس (٢) .

---

(١) لقد أسهب برستد فى توضيح هذا الوعى السابق على وعى أى شعب قديم ومن بينه الشعب العبرى على ص ١٩٩ ــ ٢٣٥ من كتابه « فجر الضمير » . راجع أيضا كتابنا : « مسيحنا فوق الزمان » ، ففى ص ٢١ منه الوصية التى يوصى بها الفرعون للقاضى ساعة تعيينه وكيف أنه كان يلبسه قلادة معت التى كان يضعها على صدره كلما جلس على كرسى القضاء ، والقصص والأقوال كلها تسجلت فى كتاب « مسيحنا فوق الزمان » .

(٢) هنا نرى رحابة الفكر الروحى الذهنى للمصريين الذين تجاسروا على الإيمان بإله واحد لكل الناس . بينما ظل اليهود منغلقين حتى عهد الرسل إذ لم يرد البعض منهم أن يقبل معمودية « الأمميين » قبل ختانهم ــ أى قبل تهويدهم . كذلك نرى هذه الرحابة فى أنهم لم يستنكروا فكرة كون الله هو أم .

١٣ــ وهذه الروح الجديدة التى ملأت قلب إخناتون استلهمت وحيها من الطبيعة بكل ما فيها من جمال وخير، وكانت فى الوقت عينه ذات حساسية مرهفة بحياة الإنسان و بالصلات الإنسانية الأصيلة المتحررة من النفاق الاجتماعى . ولقد عبر الفنانون عن هذه الروح الأصيلة فصوروا بالرسم والنحت الملك وسط عائلته كأب حنون ، فمثلا له تمثال واحدى بناته جالسة على حجره وهو يقبلها . وهنا أيضا نرى لأول مرة فى التاريخ الإنسانى تصويراً لصلة إنسانية على حقيقتها .

فمن المهم للغاية أن ندرك أن إخناتون كان نبيا : نبيا استوحى تعاليمه من خلال التأمل فى كل المخلوقات ، ورأى بعمق جلى أن كل ما عمله الله حسن فتغنى بكل هذا الحسن الباهر .

١٤ــ ومن المهم أيضا أن نعرف أن الفكر الروحى المصرى حينما ارتفع فوق الضرورة المادية للوصول الى حياة السعادة فى العالم الآخر قد تطور أيضا فى الموقف الفردى . ففى العصور الأولى حينما كان يقف الميت أمام أوزوريس ليبرر نفسه كانت اعترافاته كلها سلبية . فكان يقول لم أغضب والدى ولم أكن قاسيا على إخوتى . لم أسرق لم أكذب الخ . أما حين بلغ النضوج الروحى فقد أصبح يبرر نفسه ايجابيا فيقول : « كنت مطيعا لوالدى . مرضيا علىّ من إخوتى . أطعمت الجائع وكسوت العارى . احترمت حق الأرملة واليتيم .... »

وهذا النضوج الروحى لكونه ثمرة تطور على مدى قرون ظل مالئاً القلوب حتى بعد سقوط إخناتون و بعد أن حاول الفرعون الجديد ورجاله أن يمحوا كل أثر له . والدليل على استمرار الحركة الإخناتونية واضح من التسابيح التى لازالت (ولله الحمد) باقية منقوشة على جدران قبور أمراء الفترات التالية . فمثلا هناك كاتب رفع دعاءه الى أمون بهذه الكلمات : « أنت الآتى الى الصامت . مخلص الفقير . معطى نسمة الحياة لكل من تحب ... أعطنى يدك . خلصنى وأشرق علىّ . فأنت الإله الوحيد وليس آخر سواك .... سامع الصلوات . منقذ الإنسان من المتشامخ عليه ... مفجّر النيل من العمق ليعطى حياة للجميع ... معطى النسمة لذاك الذى فى البيضة . مهيء الطعام حتى للفئران فى ثقوبها ، وكذلك للديدان والحشرات » .

والى هذا الإله المهتم حتى بالديدان والحشرات يستطيع الإنسان المصرى القديم أن يأتى بكل مشاغله اليومية و بكل ما يصادفه من متاعب : يأتى اليه واثقا فى عطفه وجوده . ففى مقبرة طيبية سجل صاحبها كيف أن أمون رحمه وخلص ابنه من المرض . وهو يصف أمون بهذه الكلمات : « الإله صاحب الجلالة . السامع الصلوات . المسارع الى صراخ المسكين المتوجع . ومعطى الأنفاس للمنحنى فى الضيق .

بل إن هناك ضراعة أعمق روعة تقول : « أيها الواحد الأوحد . أيها الإله الشمس الذى لا نظير له . حامى الملايين . مخلص مئات الألوف . الدرع الواقى لمن ينادى عليك . ياسيد هليوبوليس ــ لا تعاقبنى لكثرة ذنوبى لأنى جاهل حتى بجسمى . أنا إنسان عديم الفهم . أسير

طول النهار وراء رغباتى كالثور الذى يجرى الى معلفه » (١) وفى هذا الموقف من الا تضاع والإقرار بعدم الاستحقاق تواصل خفى مع الله ليلاً ونهاراً : « أسرع الى يارع ــ هاراكتى لكى ترشدنى أنت » . وكما امتلأ العبرى حنينا الى أورشليم (بعد ذلك بما يقرب من العشرة قرون) وهتف « ... إن نسيتك ياأورشليم أنسى يمينى .... » (٢) كذلك تطلع هذا المصرى القديم نحو « أون » المدينة العظمى لعبادة الشمس حيث بزغ إيمان آبائه قبله بما يقرب من ثلاثة آلاف سنه ، فهتف : « إن قلبى يتطلع الى هليوبوليس ... قلبى يتهلل ونفسى تفرح . وطلباتى استجيبت . صلواتى اليومية بالنهار وتسبحاتى بالليل . وستزدهر ضراعاتى فى فمى لأنها تستجاب » .

١٥ ــ ونعود لنصغى الى نصح الحكماء لنسمعهم يقولون : « لا تكن كثير الكلام . لأنك بالصمت ستكسب الخير . أما فى الاقتراب من الله فاعلم أن الصراخ مكرهة عنده ، صلِّ إذن بقلب رغيب تختفى فى داخله كل كلمة ، والله يمنحك احتياجك و يسمع حديثك و يتقبل تقدمتك » . وبهذه الوجهة يتقدم العابد نحو إلهه كمن يتقدم الى ينبوع منعش فيهتف : « أيها البئر المعذب للعطشان وسط الصحراء : إنه مغلق لمن يتكلم ولكنه مفتوح للصامت . ومتى جاء ذاك الذى يصمت فإنه سيجد البئر » .

١٦ ــ إذن فلقد أصبح الضمير هو صوت الله بلا شك ــ وهذه أول مرة يدرك الإنسان فيها هذا الوضع للضمير . ومادام الأمر كذلك فليست هناك إمكانية للإنكار . والمؤمن على وعيه بأن كل أموره معروفة لله يضع نفسه بلا تحفظ فى يدى الله الذى يرشده و يدبر كل حياته . إن رضى المجتمع مازال مهما ، والضغوط الاجتماعية مازالت محسوسة ، ولكن فوق هذا كله تسيطر المسئولية نحو الله العارف الخفايا . فيذكّر الحكيم أمينومو پى ابنه بأن « الله يحب ذاك الذى يطيب قلب المسكين أكثر مما يحب من يكرم العظماء » . كما يذكره بأن « الأمان الوحيد هو فى الله فصلّ اليه لكى تخلص من الخوف . إن طمأنينة القلب والنجاة من المخاوف لا يمكن بلوغها إلا بالارتكان على الله .... فالله فى كماله والإنسان فى عدم كفايته ، والكلمات التى يتفوه بها الناس متباينة ، ومتباينة هى أعمال الله (٣) ... ولئن كأن لسان الإنسان هو الدفة للمركب ، فرب الكل هو الربان » ..

إذن فتراثنا الأدبى هو بالحرى الإنتاج الذى أنتجته مجموعة من الحضارات القديمة فهو إذن أسمى تعبير وأعلاه عن حياة الإنسان القديم « ككل » : إنه قمة الفكر التى وصلتنا من « أبينا الإنسان »

---

(١) ألا يتشابه هذا الموقف بموقف المرنم وهو يقول : « أنا دودة لا إنسان » ؟ ــ مزمور ٢٢ : ٦

(٢) مزمور ١٣٧ : ٥

(٣) المقصود بهذا التعبير هو أن أعمال الله متباينة عن كلام الناس .

١٧ ــ يقول هوجوجرسمان اليهودى الأمر يكي المستشرق : « إن جوهر الفكر فى كون العالم تحت الرعاية الإلهية وصل الى فلسطين فى عصر متأخر، ونراه فى المزامير تحت الأثر المصرى . ومن هذا المنطلق تكشف لنا تسبحة إخناتون عن إدراك المرنم لصلاح الله المشفق فى رعايته لمخلوقاته حتى أصغرها (١) . وهذه التسبحة بنظرتها الكونية ونسماتها الخافقة بالوحدة الإلهية قد انتشرت فى غرب أسيا بأجيال قبل قيام نداءات الأنبياء العبرانيين . فمن المعقول أنها أثرت على الإحساس بالدولية الذى فرض نفسه على الأنبياء حينما وجدوا دولتهم ألعوبة فى أيدى جيرانها الأقوياء . وعند ذاك تحول « يهوه » من إله محلى الى إله مسكونى يقود تحركات ملوك الأرض و يستطيع أن يكبح جماحهم لخير إسرائيل ثم أخيراً لخير العالم كله . ولقد أثبتت الاكتشافات الأثرية الحديثة أن العبرانيين قد قرأوا التعاليم الأدبية الروحية التى للشعوب الأخرى فاتخذوا الأفكار التى وجدوها فيها . ففى وصية أمينومو پى الحلوة : « ضع نفسك بين يدى الله » لا نستطيع إلا أن نذكر على الفور قول موسى فى بركته للشعب : « قديم الأيام ملجأ والأذرع الأبدية من تحت » (٢) .

وعلى أية حال فقد وضح أن المثالية المجتمعية المبنية على تفهم رفيع للشخصية : أقدم مثالية والوحيدة فى تلك العهود السحيقة ــ نشأت فى مصر قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م . ، وأن الكتب التى تتضمنها كانت تقرأ فى أورشليم من أولئك الذين كتبوا العهد القديم . ولكن بما أن الحضارات العتيقة اختفت ، وبما أن كتاباتها ظلت مجهولة حتى العصر الحديث فظلت بالتالى مخفية داخل الصمت مدى قرون طويلة ــ فهذا الاختفاء وهذا الصمت تركا الإنتاجات العبرية تشرق كأنها منارة وحيدة وسط الظلمات . ولو أن العالم الغربى لم يفقد المعرفة بأصول الحضارات القديمة وتطوراتها لنظر الى الإنتاج الأدبى الروحى للعبرانيين بوصفه النهاية لتاريخ طويل سابق من النمو الفكرى الروحى ، وايقن بأنه من غير المستطاع أن ينفرد شعب بالوحى الإلهى . فجهلنا بالحضارات الشرقية القديمة قد أعمانا مدى قرون عن ميراثنا النبيل : ميراث التطلع الإنسانى العام نحو الله ، إنه ميراث غير محدود بتاريخ شعب واحد ولا باختباراته وحده ــ لأن الله لا يقصر رعايته على شعب واحد .

إذن فأعظم ما وهبنا اكتشاف الحضارات الشرقية القديمة هو أننا استعدنا وعينا بأن ميراثنا الأدبى الروحى واسع سعة الأفق : ميراث وصل الينا عن حياة الإنسان فى شاموليته . وهنا نرى أعظم الرؤى إذ أصبح فى مقدورنا أن نثبت عن طريق انسياق التاريخ وكنتيجة للاختبارات الاجتماعية أن تفتح الوعى بالفرق بين الخير والشر و بالقيمة العظمى لنموه هو عملية

---

(١) « فجر الضمير » ص ٣٨٦ ، و يؤيد هذا القول يهودى أمر يكى مستشرق آخر هو سايروس جوردون الذى وضع كتابا باكمله فى هذا الموضوع بعنوان « خلفية الكتاب المقدس » (بالإنجليزية)

(٢) تثنية ٣٣ : ٢٧ .

مازالت مستمرة، وأننا مازلنا عند شروق الشمس فى عصر الشخصية. وبأزاء هذه الرؤيا نسمع السيد المسيح يقول لنا: «أبى حتى الآن يعمل وأنا أيضا أعمل» (١).

* * *

١٨ــ ومن أعجب الكتب التى شاء الآب السماوى أن تصل الىّ كتاب عن «برج الدلو» ــ وهو البرج الحادى عشر بين الأبراج الكوكبية التى تنتقل بينها الشمس. ويقول كاتبه إنه كتبه تحت إرشاد روحانى وهو لذلك كان يكتبه ما بين الثانية والسابعة صباحا. وقد أراه «مرشده» السنوات ما بين الثانية عشرة والثلاثين التى لم يرد لها ذكر إطلاقا فى الأناجيل. ففى هذه السنوات تنقل السيد المسيح ما بين الهند والتيبت وبلاد فارس وانتهى تنقله الى مصر.

ومن المعروف بين المصرولوجيين أن مدينة «أون» (أو هليوبوليس) مدينة الشمس كانت تضم أقدم معبد فرعونى: هو معبد ومدرسة للعلوم الروحانية السرية. فقصد السيد المسيح الى هذا المعبد.

وهنا يقول مؤلف «برج الدلو» إن حكماء الكهنة الذين توارثوا العلوم الروحانية جيلا بعد جيل كانوا قد ورثوا ضمنها سبعة امتحانات ــ أو بالحرى سبعة اختبارات يجوزها كل من يهدف الى المعرفة الروحانية ومع هذه الاختبارات تصريح بأن من ينجح فيها كلها هو المسيح المنتظر.

ويتضمن الكتاب وصفاً مسهبا لكل هذه الاختبارات وللأماكن التى يؤخذ اليها الطالب ليختلى فيها مع نفسه ويواجه ما يتعرض له من اختبار. ونكتفى هنا بأن نسجل نتائج هذه الاختبارات السبعة.

وأول من يتلقى يسوع هو الحكيم الأكبر الذى يعطيه اسماً سريا وعدداً سريا ثم يدخله الى قاعة الاختبار. والعجيب أن الاسم السرى هو «اللوغس». وحالما نجح فى الاختبار الأول دخل اليه كاهن بثياب بيضاء وأمسك بيده وأخذه الى محفل الحكماء. وهناك تقدم اليه الحكيم الأكبر ووضع يمناه على رأس يسوع وقدم له برديه كتبت عليها كلمة واحدة هى «**الوفاء**». وكان يرغب فى أن يجعله يستريح قليلا قبل البدء فى اختباره الثانى. ولكن يسوع قال: «لست فى حاجة الى الراحة لأن عمل أبى يحصرنى. وإن كانت هناك تجارب فلتأت لأن كل انتصار هو قوة مضاعفة». وعلى الفور أخذوه الى غرفة حالكة الظلمة، وهناك واجه قوات الظلمة وأعلن لهم فى توكيد: «إن النور الذى فى داخلى يفوق بهاء الشمس». وهكذا شتتهم.

---

(١) كل ما جاء من ص ٢٣ الى الصفحة الحالية ملخص عما جاء فى كتاب «فجر الضمير» من ص ٢٥٥ ــ ٣٣٥ وص ٣٦٨ــ ٣٨٦، يوحنا ٥ : ١٧

ومرة أخرى جاءه الكاهن ذو الثوب الأبيض وقاده الى محفل الحكماء . وما إن وقف أمام كبيرهم حتى وضع فى يده بردية كتبت عليها كلمة واحدة لاغير هى كلمة **العدالة** .

و بعد هذا الاختبار جعلوه ينتظر سبعة أيام . ثم أدخلوه الى قاعة فخمة مزدانة بمصابيح من الذهب والفضة ومؤثثه بأغلى الأثاث ــ هى « قاعة الشهرة العالمية » . وأمام مختلف الوعود والإغراءات قال فى ثقة وهدوء : « أعطونى فقر الناس والوعى بالواجب الذى يتم عن محبة ، والرضى الإلهى ــ فهذا يكفينى » . ثم رفع عينيه نحو السماء وقال : « أيها الآب أشكرك على هذه الساعة . و يكفينى أن أكون الحارس للهيكل وأخدم إخوتى » . وعندها سار به الكاهن ذو الثوب الأبيض الى كبير الحكماء الذى سلمه بردية ثالثة كتبت عليها كلمة « **الإيمان** »

و بعد بضعة أيام أخذوا يسوع الى « قاعة المرح » حيث رأى غلاظة القلوب التى طردت الجائع وهزأت بالفقير. وحين حاول هؤلاء القساة أن يقنعوه بالانضمام اليهام أجابهم : « كيف أستطيع المرح بينما الآخرون فى عوز ؟ كيف تتصورون أنه بينما يبكى الأطفال طلباً للخبز ، و بينما يستغيث الخطاة طلبا للحنان يمكن لأحد أن يمرح ؟ إننى أقول لكم بأن ما فعلتموه بإخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم » . وعندها جاءه الكاهن ذو الثوب الأبيض وأوقفه للمرة الرابعة أمام كبير الحكماء الذى أعطاه بردية كتبت عليها كلمة « **محب البشر** » .

وقضى يسوع أربعين يوماً وسط بساتين المعبد حيث جاز اختباره الخامس نال بعده من كبير الحكماء بردية مكتوب عليها « **البطولة** » .

ولم يكن فى مصر كلها مكان أبهى رونقا من « قاعات الجمال » الملحقة بمعبد الشمس . فكان الكهنة أنفسهم يسمونها « قاعات الأسرار » . وقد سار الكاهن ذو الثوب الأبيض بيسوع الى « قاعة التناغم » وتركه فيها . وكان بهذه القاعة مختلف الآلات الموسيقية من بينها قيثارة . و بينما هو يتأمل دقة صنع القيثارة دخلت شابة رائعة الجمال وأخذت تعزف عليها وتنشد أناشيد بنى يهوذا . وقد تركه الكهنة أياماً فى هذه القاعة . وأمام إغراء الجمال والموسيقى العذبة أعلن : « لقد أرسلنى أبى لأبيّن قوة المحبة الإلهية التى تمتد لتشمل كل مخلوق . وهذه المحبة تفوق الإدراك » . وعندها سارعت الشابة الى الاختفاء . وفى اللحظة عينها أخذت الأجراس الكبرى للمعبد ترن ، وأخذ المنشدون يترنمون بنشيد جديد ، واشتعلت القاعة بأنوار ساطعة . وجاء كبير الحكماء بنفسه الى القاعه وهتف : « تحية لك . تحية لك أيها اللوغس الغالب . فالمنتصر على كل المحبات العالمية يقف على القمة » . ووضع فى يد يسوع بردية منقوشا عليها : « **المحبة الإلهية** » .

واتخذه كبير الحكماء تلميذاً . وعرفه بكل العلوم المصرية السرية : العلوم الخاصة بخفيات الحياة والموت ، و بالأكوان التى تفوق الشمس . فلما انتهى من دراسته أخذه الكاهن ذو الثوب الأبيض الى « قاعة الموتى » حيث يشتغل المحنطون . ووجد يسوع أما ثكلى تبكى وحيدها . فقال

لها : « إذهبى وانسى حزنك فى تجفيف دموع الباكين ، واعلمى أنك بعملك هذا ستفرحين قلب ابنك » . وأطاعته المرأة فدفنت حزنها داخل عمق خدمة الآخرين .

ومرة رأى فتاة آتية خلف جثة أمها . وعند مدخل « قاعة الموتى » لمحت عصفوراً جريحا يصوصو . فتركت موكب أمها والتفتت إليه : أخذته فى حنان وحب وضمته الى صدرها بعد تضميد جرحه . فسألها : « لماذا فعلت هذا ؟ » أجابته : « لقد علمتنى أمى أن الهناءة الحقيقية هى لمن يغلب مشاعره وانفعالاته و ينتبه لغيره » قال : « لقد صدق فيك قول داود النبى حين هتف : من أفواه الأطفال والرضعان هيات سبحاً » . ثم وضع يده على رأس الفتاة وقال : « ثقى بأن بركات أبى السماوى ستحل عليك مدى الحياة » .

و بعد أن قضى يسوع الفترة المحددة وأكمل اختباره أوصله الكاهن ذو الثوب الأبيض الى « القاعة الأرجوانية » وأوقفه أمام كبير الحكماء . ثم ألبسوه حلة أرجوانية ووقف كل الكهنة الحكماء حوله . ثم وقف كبيرهم وقال : « إنه ليوم ملكى . فقد وقفت ست مرات أمام محكمة البر ، وست مرات نلت أعلا الدرجات التى فى مقدور إنسان أن يمنحها . وأنت واقف الآن متهيأ لأن تنال الدرجة الأخيرة وهى أعلاها . وعلى جبهتك أضع هذا الاكليل البهى ، وفى « المسكن الأعظم » فى السماء وعلى الأرض **أنت المسيح** . فاذهب فى طريقك لتكرز بالمحبة والسلام ولتفتح أبواب السجون ولتحرر المأسورين » .

و بينما كبير الحكماء يتكلم عاودت الأجراس الرنين . وإذا بحمامة ناصعة البياض قد نزلت من فوق وجلست على رأس المسيح . وفى اللحظة عينها ارتفع صوت هز أرجاء المعبد يقول : « **هذا هو المسيح** » . فردد كل مخلوق حى : آمين .

وانفتحت أبواب المعبد العظيم على مصاريعها :

وخرج اللوغس غالباً ولكى يغلب

ولنفترض أن هذا خيال محض ولكنه يصور مصر صورة عليا . وتزداد هذه الصورة رونقا حين نذكر أن كاتبها سكوتلاندى بروتستانتى . فهذا الغريب قومية وعقيدة قد شهد لمصرنا الحبيبة بأنها كانت مقراً للتعاليم الروحية العليا منذ أقدم عصورها .

١٩ ــ ولم يكتف مفكرو المصريين الفراعنة بالتعبير عما جال فى أعماقهم عن طريق الحكماء والأنبياء بل عبروا عنه أيضا عن طريق القصص . فقد عثر المستشرق الألمانى چورچ ايبرز على مجموعة من البرديات تتضمن قصصا على غاية من الإبداع : واحداها قصة « بائعة الزهور » ، وهى هنا مأخوذة عن ترجمته الانجليزية :

منذ عهد بعيد عاش فى طيبة أخت وأخوها . وكان اسم البنت تارى واسم أخيها

أهمس . وكانا قد فقدا والديهما اللذين تركا لهما بيتا متواضعا وسط حديقة واسعة . فكان أهمس يشتغل بزراعة الزهور المختلفة . وفى ركن من الحديقة أقاما دكانا تبيع فيه تارى الزهور التى يزرعها أخوها . وكان كلاهما سعيدين بعملهما .

وذات يوم ــ وكان عيد للإلهة إيز يس ــ اقترح أهمس على أخته أن يقضيا اليوم فى قارب فوق النيل العزيز . فأعدت تارى ما يلزمهما من طعام وشراب . وخرجا من الصبح فاستأجرا قارباً انشغل أهمس بتسييره بالمجدافين . وعند الظهر نزلا الى الشاطىء وجلسا تحت شجرة باسقة فأكلا وشربا ثم عادا الى القارب .

وعادا بعد الظهر . ولما وصلا الى المرسى قفز أهمس من القارب ثم جره نحو الشاطىء لتنزل أخته . وكان على مقربة من المكان تمساح نائم أيقظته الحركه فسبح نحو القارب . وأمسك الشاب بيد أخته فوضعت قدماً على الشاطىء . وحين همت بوضع الآخر قضم التمساح ساقها حتى الركبة . فرفعها أخوها على ذراعيه وأرقدها على العشب الأخضر على مسافه من الشاطىء حرصاً من أن يتبعها التمساح . ثم جرى لكى يحضر لها نقالة . وحين وجدت نفسها بمفردها أغمضت عينيها وأخذت تصلى بدموع طالبة الى الإلهة إيز يس أن تنجدها . وكانت صلواتها حارة الى حد أنها سمعت حركة قريبة ففتحت عينيها . وإذا بشاب وسيم يقول لها : « لا تخافى . فأنا بتاح أرسلتنى الأم ايز يس لنجدتك . ولكن عدينى وعداً صادقاً بأن لا تبوحى لأحد ــ ولا حتى لأخيك ــ بما سأفعله لك » . فلما وعدته طلب اليها أن تغمض عينيها . وبعد فترة قال : « افتحى عينيك » . ففتحتها . وإذا بساق كساقها بالضبط ولكن من الذهب موضوعة مكان التى فقدتها . وطلب اليها أن تقف فوقفت ثم أن تمشى فمشت . وعند ذاك سألها إن كانت الساق مريحة أجابته : « إنها مريحة جداً حتى ليخيل لى أننى لم أفقد ساقى ! فشكراً لك . وشكراً للأم ايز يس . شكراً جزيلاً » . وإذ به يتلاشى من أمامها .

وعاد أهمس ومعه النقالة وحاملها . فوجدها تتمشى فوق العشب فى فرح واضح . وبالطبع اندهش وسألها عما حدث أجابته : « لقد استنجدت بالأم ايز يس وهى نجدتنى » . فقبل منها الرد لفوره دون أى سؤال آخر .

ومرت شهور فى هدوء أصيب أهمس بعدها بالمرض . فاستحضرت له تارى الكهنة ليعالجوه ولكن المرض لم يزل . وأخذ الكهنة يغيرون الأدوية وينوعون الصلوات من دون جدوى . فكانت تارى ــ الى جانب انشغالها بأخيها ــ تزرع وتبيع . وبالطبع نقص الإنتاج فنقص الدخل مع أن احتياجها الى المال تضاعف . وفى ضيقتها قررت تارى أن تبيع الساق الذهبية لتشترى الأدوية اللازمة لأخيها كما تشترى ملفات الصلوات .

---

(١) هو الإله الصانع ، وله تماثيل نراه فيها جالساً أمام عجلة الفخارى ــ والفخارى يقدمه لنا أشعياء فى ٦٤ : ٨ وأرميا ١٨ : ٦ ، والفكر المصرى عن بتاح بدأ من عصوره الأولى وهو معاصر للدراما المنفيسية .

وكان فى طيبة صائغ اشتهر بما عنده من المجوهرات النادرة . فكان الأمراء والأميرات يشترون إنتاجاته البديعة . فذهبت اليه تارى واستحلفته بأن لا يبوح لأحد بما ستقوله له . ولما وعدها كشفت عن ساقها فوجدها غاية فى الإتقان واشتراها منها على الفور مقابل مبلغ كبير .

واستمرت تارى تخدم أخاها وتزرع وتبيع . ولكنها ــ منذ أن باعت ساقها ــ كانت تجلس خلف المائدة المرصوصة عليها الزهور . فلم تعد تقوم لزبائنها ولا أن توصلهم للباب . وكانوا يعرفون عن مرض أخيها . ولاحظوا على وجهها الجميل مسحة من الحزن . فاستمروا يشترون منها .

وبعد أن باعت ساقها بأيام قليلة ذهب الى الصائغ الأمير مينا الذى كان من كبار الأمراء . وما إن رأى الساق حتى قرر شراءها وهو يقول : « هذا الساق آية فى الدقة . فليس من صانع بهذه البراعة غير الإله بتاح ! » قال له الصائغ : « أرجوك أن لا تسألنى إطلاقا عنها فإن شئت إشترها فقط » . وصمت الأمير برهة ثم اشترى الساق دون أية كلمة أخرى . ولشدة إعجابه بها وضعها فى حجرة نومه بدلاً من وضعها مع بقية التحف فى حجرة الاستقبال .

ثم حدث أن أرق الأمير مينا ذات ليلة . فرأى أن يجلس قليلا فى الشرفه لعل النسيم يجعله ينام . وكم كانت دهشته عظيمة حين فتح عينيه إذ وجد الساق تشع نوراً فى ظلمة الليل ! فقال فى نفسه : « يالها من ساق عجيبة ! ترى من أين أتى بها الصائغ ؟ ومن الذى صنعها ؟ » وظلت هذه الأسئلة تساوره لأيام .

وكان للإله أوزوريس عيد كبير بعد أيام قليلة . وكانوا يؤمنون بأن من يستطيع الوصول الى المعبد الكبير القائم فى الصحراء على مسافة غير قصيرة من المدينة ــ من يستطيع الوصول عند انبثاق الفجر و يدخل الى الداخل و يوقد الشعلة القائمة عند قدمى التمثال قبل غيره ، فإنه يطلب ما يشاء من الإله العظيم فيستجاب . فقرر الأمير مينا أن يذهب ليعرف سر هذا الساق . وفى الليلة السابقة على يوم العيد قام فى منتصف الليل وركب هودجه الذى يحمله أقوى وأسرع رجاله . كذلك عداءه السريع . وقام الكل فى هذه الساعة وساروا نحو المعبد . والأمير يستحث رجاله على الإسراع قدر الإمكان .

أما تارى ، فبعد أن أطعمت أخاها عشاءه وأعطته دواءه وترنمت له بالترانيم التى وصفها لها الكهنة الى أن نام دخلت مخدعها وقضت الليل كله فى ضراعة حارة الى الإله أوزوريس لكى يتراءف عليها و يقبل صلواتها لأنه عارف بعجزها عن الوصول الى معبده كما أنه عارف بتلهفها على شفاء أخيها . وظلت فى صلواتها الى أن طلع الفجر .

وسار الأمير مينا بموكبه يتقدمه حملة المشاعل . ولاحظ بارتياح كبير أن أحداً لم يسبقه على الطريق . وحين وصلوا على مرأى من المعبد طلب الى عدّائه أن يركض و يدخل الى المعبد ليرى إن كان غيره قد وصل وأوقد الشعلة . فركض العداء بأقصى ما يستطيع . ولكنه عاد بنفس السرعة وهو يقول : يا للأسف ! لقد وجدت الشعلة متقدة ! قال الأمير : ياللعجب ! فنحن لم

نر أحداً على الطر يق ! فقل لى : « هل لمحت أحداً فى الداخل » ؟ أجابه : « لم يوجد أحد فى الداخل . ولكننى حين جلت ببصرى حول المكان خيل لى أن تارى بائعة الزهور تجرى خارجاً من الباب الخلفى . وهذا ليس بعجب فأخوها مر يض منذ شهور كما تعلم » .

و وصل الأمير الى المعبد . ودخل الى الداخل وقدم تقدماته . ثم قال لحاشيته : « هلموا الى دكان تارى بائعة الزهور لنتحقق مما قاله عدّاؤنا » .

و بلغوا الدكان على أثر فتح بابها بقليل . وكانت تارى جالسة فى مكانها المعتاد . ودخل الأمير مينا بمفرده . وتظاهر بأنه ير يد شراء بعض الزهور . و بعد أن تفرج على مجموعة منها سأل . « أرجوك أن تقولى لى كيف استطعت أن تسبقينا فى الوصول الى معبد الإله أوزور يس وأن توقدى الشعلة ثم تعودى وتفتحى دكانك قبل أن نصل نحن اليك ؟ علماً بأننا موكب من الرجال الأقو ياء وأنت شابة بمفردك » !

و بدت الدهشة على وجهها الشاحب الجميل وامتلأت عيناها بالدموع التى لم تستطع أن تحبسها . ثم قالت بشىء من الأسى : « أنا ! لقد كنت متلهفة على الذهاب . ولكننى أعجز عن أن أقوم بهذا المشوار الطو يل » . فعاد الأمير يقول : « لقد قمنا عند منتصف الليل . وأسرعنا قدر المستطاع . وحين قاربنا المعبد ركض عدّائى قبلنا ثم عاد يقول إنه وجد الشعلة متقدة وإنه رآك تسارعين الى الخروج من الباب الخلفى » . أجابته بصوت يهتز بالمشاعر : « صدقنى إننى لم أذهب . لقد قضيت الليل كله أضرع الى الإله أوزور يس أن يتراءف علينا و يشفى أخى » . على أن الأمير لم يقتنع فسأل : « إذن فمن الذى أوقد الشعلة » ؟

وأطرقت تارى قليلا لعلها تحبس دموعها ، ثم قالت : « أرجوك أن تصدقنى . فأنا لم أذهب . وليس فى إمكانى إطلاقا أن أذهب » . فعاد يسأل : « ولماذا ليس فى إمكانك إطلاقا أن تذهبى » ؟ واضطر بت . وصمتت فترة . ثم قالت بصوت متهدج : « أنك لا تعرف أننى بساق واحدة » ! فقال فى دهشة : « لم يسمع أحدنا أنك بساق واحدة ! »

فوقفت مستندة الى المائدة . ورفعت طرف ثوبها لتر يه حقيقة ما تقوله . وفى تلك اللحظة عينها دخل أخوها يقفز فرحاً وهو يهتف : « لقد عوفيت ياتارى . فقد رأيت فى حلم الإله أوزور يس يأمرنى بمغادرة فراشى و يعلن أنه شفانى ! » وفى اندفاعه وتهليله لم يلحظ موقف أخته . ولكنه ما كاد ينتهى من كلامه حتى سأل فى ذعر : « ر باه ! أين ساقك الأخرى ؟ » وكان الأمير مينا صامتا منذ أن رفعت تارى طرف ثوبها . ولكنه قال عند ذاك : « أنا أعرف أين هى — إنها عندى » .

وساد الصمت بضع دقائق . ثم قال الأمير مينا : « **إننى على استعداد لأن أرد اليك ساقك بشرط واحد** » . وتفرس **فيه كل من تارى وأهمس ، فاستكمل : « الشرط هو أن تصبحى** زوجتى » . قالت لفورها : « هذا غير ممكن » فسألها : « لماذا ؟ » أجابت : « أنت من كبار

الأمراء وأنا بائعة زهور: » فابتسم فى هدوء وقال : « ومع ذلك فقد فضلك الإله الكبير وأعطاك سؤل قلبك وأنت داخل حجرتك » .

ومرة أخرى ساد الصمت . وتبادلت تارى النظرات مع أخيها . قال الأمير : « واضح أن محبتك لأخيك هى الدافع الأول لرفضك . ولكن ثقى أننى سأعامله كأخى الصغير . وأنا ليس لى إخوة . وثقى أننى سأهىء له كل أسباب الراحة والنجاح » . وعادت تارى الى الإطراق فى صمت . وتبادل الأمير النظرات مع أخيها الذى لم يلبث أن قطع الصمت بقوله : « بالحقيقة ياتارى إنى أضم صوتى الى صوت الأمير الكبير . فأنت قد بذلت كل ما تستطعين من أجلى . و يسعدنى أن أراك زوجة مكرمة معززة من هذا الأمير المتواضع القلب » .

وانسابت دموع تارى بينما صمت الا ثنان . و بعد فترة قصيرة استطاعت أن تجفف دموعها وأن تقول : « حقاً إن الآلهة قد أسعدتنى . فالأم ايز يس نجدتنى فى محنتى الأولى ، والآن يساندنى الإلة أوزور يس . وإنى لأشكرك من عمق قلبى أيها الأمير الكبير » . ومد ذراعيه نحوها وأمسك بكل من يديها فى يده . وتعاهد الا ثنان على أن يعيشا فى محبة وتقدير .

و بعد أيام تمت مراسيم الزواج التى تحولت بها تارى من بائعة الزهور الى الأميرة تارى زوجة الأمير الكبير مينا . وشاء الآلهة أن يمنحاهما حياة مليئة بالمحبة طو يلة فى سلام .

٢٠ــ و بعد هذا التجول بين الإنتاجات الفرعونية الروحية الفكر ية نتأمل ناحية أخرى من نواحى التطلع الفرعونى ــ هذه الناحية هى وعيه بقوميته : وسنراه فيمايلى :

نشر المستشرق الفرنسى إتيين در يوتون هذا المقال فى القاهرة سنة ١٩٤٣ ، وهو كان ممن يجيدون الهيروغليفية ويمحصون معانيها . ومادمنا نقول إننا أولاد الفراعنة يحسن بنا أن نتمعن ما جاء فيها لعل الذكرى تيقظ النائمين . وهذه ترجمة ما كتبه :

إن النهضة القومية المصر ية الحالية ، والإدراك المتصاعد فى وضع رؤ ية مصر موضع الدولة المتجانسة المنادَى عليها بأن تؤدى دورها فى تقدم الإنسانية ــ هذه النهضة وهذا الإدراك كثيراً ما يتصورهما البعض كصحوة من نوم طو يل .

ومع ذلك فالنائم يستمر حياً لا يتفادى فعل الزمن .

على أن نهضة مصر الحالية تتناغم بالضرورة مع النهضات المعاصرة ــ فهى ليست مجرد صورة جديدة لما كانت عليه قديما .

ومن الشيق للغاية أن نعرف العناصر التى تألفت منها القومية المصر ية قديما وأن نعرف أيضا الوطنية التى كانت التعبير العملى لها . فهى كلها شيقة و بالأخص لأولئك المهتمين بالنهضة الحديثة الساعين وراء الكشف عن جذورها العتيقة .

والعاطفة القومية نلتقى بها أول ما نلتقى فى « نصوص أهرامات سقارة » التى يرجع البعض منها من غير شك الى ما قبل التاريخ : تناقلتها الأجيال شفويا الى أن سجلوها بكتابتها على جدران أهراماتهم . وبين هذه النصوص « ترنيمة الى مصر » ، وفيها يطلقون على مصر اسمها الرمزى المفضل عندهم وهو « عين هورس » ــ دليلاً على أنها أغلا شىء عند هذا الإله ، وإليكم الترنيمة :

سلام لك ياعين هورس
التى زينها بيديه الاثنتين !
إنه لم يرد لك أن تطيعى الغربيين ،
ولم يرد لك أن تطيعى الشرقيين .
إنه لم يرد لك أن تطيعى الشماليين ،
ولم يرد لك أن تطيعى الجنوبيين ....
أطيعى هورس ــ ذاك الذى زينك ،
ذاك الذى بناك ، ذاك الذى أسسك ....
إفعلى له كل ما يقوله لك حيثما ذهب .
استقى له الماء العذب الذى فيك ،
استقى له الماء العذب الذى سيكون فيك .
أحضرى له كل نبته تنمو فوقك ،
أحضرى له كل نبتة ستنمو فوقك .
أحلى اليه كل رغيف مخبوز فيك ،
أحلى اليه كل رغيف سيخبز فيك .
أحضرى اليه كل الأشياء الناتجة عنك ،
أحضرى اليه كل الأشياء التى ستنتج عنك .
قدمى له كل جهازك فى كل مكان يرغب فيه قلبه .

إن الأبواب المحيطة بك تنتصب كالحارسات .
فلتنغلق أمام الغربيين ،
ولتنغلق أمام الشرقيين ،
فلتنغلق أمام الشماليين ،
ولتنغلق أمام الجنوبيين !
ولكن لتنفتح على مصار يعها لهورس !
إنه هو الذى صنعها ــ هو الذى نصبها ،
إنه هو الذى خلصها
من كل إغارات ست
الذى هاجمها بها .

هذه هى أقدم ترنيمة قومية لمصر، وهى بلاشك أقدم ترنيمة قومية فى العالم بأسره. فمصر الموحدة على طول الوادى وعرضه مجسمة «ككل أدبى» ــ فى وسعها أن تمنح أو تمنع طاعتها، أن تفتح أو تغلق أبوابها، وأن تقدم ثروتها الطبيعية والصناعية لمن تشاء.

إنها دولة. إنها وطن.

وهى فى الوقت عينه تقاوم الشعوب المجاورة التى لا ترتكن عليها لأن ولاءها بأكمله الى إلهها هورس مؤسس عائلاتها الملكية.

هنا نلمس أساس القومية المصرية القديمة: إنه الدين. ويمكن تلخيص العقيدة الدينية التى نجدها مسجلة بوفرة فى كل برديانها. والسمة والميزة اللتان يتصف بهما قدماء المصريين يمكن تلخيصهما فى أنهم كانوا يطيعون الآلهة، وعلى الأخص الإله هورس. فلقد وصل بهم الأمر الى تسمية وطنهم الغالى «أرض هورس» أو «عين هورس».

وفى الحقيقة كان المصريون يعتبرون كل الناس ــ على الرغم من اختلافاتهم فى الجنس والعادات ــ من أصل واحد. فالإله الشمس ــ فى بدء الزمان ــ بكى فتساقطت دموعه على الأرض فى شكل إنسان. والأجناس الأربعة: المصريون والأسيويون والزنوج والليبيون قد تساقطوا بالتتالى من عينيه. بل إن الإنسانية نشأت من هذه الدموع، فهى بالتالى «قطيعه». وهذا التعبير قد استعمله الحكماء المصريون فى حديثهم عن الناس: كل الناس.

ثم دخلت هذه القصة فى التاريخ: تاريخ الآلهة وتاريخ الناس. وهوجم أوزوريس إله الخير والمدنية بشراسة من أخيه ست الذى قتله (١). واستولى إله الشر على المملكة بالعنف. وكان هورس ابن أوزوريس آنذاك وليداً. فلما شب حارب قاتل أبيه وانتصر عليه. وأصدر الآلهة جميعا الحكم بأن الملكية على هذه الجوهرة «مصر» من حق هورس. فأبعدوا ست الى الصحراء والأراضى القاحلة. ومذاك ظل العالم منقسما بين معسكرين: معسكر الأوفياء المتعبدين لهورس ويخضعون لخلفائه الفراعنة وهم المصريون، ومعسكر الموالين لست مقاتلين مصر ومتجاهلين ملوكها الخلفاء الشرعيين لهورس وهم الأغراب.

ولم تكن هناك أية تفرقة عنصرية فى القومية المصرية الفرعونية: بل كانت هذه القومية فلسفة دينية شاملة مرحبة بكل من يتقبلها عنيفة مع كل من يرفضها. والواقع أن الاعتراف بسلطة هورس ــ أى بالفرعون ــ أفسح للمساواة بين المصريين والأجانب مهما كان أصلهم، ومنحهم الحقوق عينها التى يتمتع بها أبناء مصر. وتاريخ مصر مليء بالشهادة على ما استمتع به الغرباء فى قصور الفراعنة (كما سبق القول). وكانت هذه الناحية المتحررة للقومية المصرية هى التى

---

(١) ألا يرن صدى هذه القصة فيما حدث بين هابيل وقابين بعد ذلك بقرون؟ وما وحدة الحوادث المسجلة غير الدليل على أن مصدر الوحى للمصريين وللعبريين هو الله خالقهم والمعتنى بهم. أما المعسكران فمازالا الى الآن: معسكر الخير ومعسكر الشر، كما أن الصراع بينهما مازال قائما.

أضفت على مصر عظمتها مع صيانتها لوحدتها . إنها مكنتها من أن تتجدد المرة تلو المرة ، وأن تمتص عصارة من النشاط ومن التفهم والتفتح .

وهذا الخط من السلوك المتفتح المرحب الذى سار عليه معظم الفراعنة أثر بدوره على المفاهيم الفكرية واللاهوتية ووسعها . فمن ناحية ظلت العقيدة المبسطة عن أن مصر هى مملكة هورس وأن الغرباء هم أشياع ست : ظلت هذه الصورة الى آخر عهد الحضارة المصرية . فقد ظلت مصر حتى فى عهد البطالسة الهللينين بعنف و بسبب تفكيرهم فى الأسيويين والأفريقيين المترابطين معا تحت عرش الفرعون أو المدوسين منه تحت موطىء قدميه : ظلت على عقيدتها الأصيلة فى أنها مملكة هورس .

وهذا الواقع نجده مسجلا فى « كتاب الأبواب » والمخطوط على الجدران الداخلية لمقابر الملوك . فالزائرون لمقبرة سيتى الأول سيقفون كلهم فى الحجرة الأولى أمام سلسلة الوجوه الإنسانية المؤلفة لموكب الشمس فى العالم الآخر . فهنا لا نرى أسيراً مقيداً ، وإنما نرى موكباً ينتظم فيه الأسيويون والزنوج والليبيون ثم المصريون (١) : كل بلباسه القومى . و يرقبهم هورس مستنداً الى عصاه . وهو يحادثهم كلهم حديثا وديا واعداً إياهم بالسعادة فى العالم الآخر ، و يوضح لهم فى حديثه كيف أن الظروف التى تساقطت فيها الدموع الإلهية هى التى تسببت فى تعدد الأجناس . قال هورس الى قطيع الشمس المبعثر فى أعماق مصر وفى الصحارى المجاورة : « كونوا مباركين ياقطيع الشمس المخلوق من الكبير المالك فى السماء ! فليملأ النسيم أنوفكم . ولتشمل النجاة مومياءاتكم ! أنتم دموع عينى بوصفكم أناساً . كانت المياه غزيرة فنشأتم أسيويين تحت رعاية « سخمت » (٢) ــ إنها هى التى تحمى نفوسكم ! أنتم الذين أتقدم نحوكم ــ سعيداً بكثرتكم أيها الزنوج (٣) . لقد خضعتم لهورس وهو الذى يرعى نفوسكم ! ثم فتشت عن مدامعى فوجدتكم أيها الليبيون ــ إنكم تتعبدون لسخمت وهى التى ترعى نفوسكم ! »

و بالنسبة لهذه الصورة وهذا النص ورد فى « كتاب الموتى » ما يدعو الى العجب ــ هو أن المصريين آمنوا بوجود مترجمين فى العالم الآخر ليقدموا للإله أوزوريس هؤلاء الأغراب الذين لا يتكلمون بالمصرية ! إذن فهم بهذا قد اعترفوا بأن الأجانب سيشاركونهم أبديتهم السعيدة (٤) . وبما أن فرعون مصر قد أصبح ملك شعوب الشرق الأوسط ، فهذه الشعوب لابد لها من أن تدور فى فلكه سياسيا ودينيا : فتحترم فرعون وتدين بالولاء لآلهته . فلم تعد متمردة بل صارت متساوية مع عباد هورس أمام الآلهة وأمام الناس .

---

(١) هنا أيضا دليل على رحابة المصريين إذ يوقفون كل الآخرين أمامهم .

(٢) سخمت هى الإلهة المقاتلة فرأسها رأس نمرة .

(٣) يقال إن الإله الشمس حين وجد دموعه وفيرة نزل ليتفرس فيهم وكانت المجموعة الأكثر قربا منه هى التى صارت الزنوج إذ أحرق اقترابه بشرتهم

(٤) هنا صورة أخرى من رحابة الروح المصرية التى تندر بين الناس حتى فى عصرنا الحاضر وحتى بين « أولاد الفراعنة » !

ثم دارت الدوائر. فمصر بتمدينها للشعوب المجاورة قد أيقظت قوميتهم. وبهذه اليقظة انتهزوا أول فرصة لمقاومتها. كذلك اصطدمت بالمدنيات الكبرى كالبابلية مثلا. وعلى أية حال فمصر كانت دائماً فريسة مستساغة أمام أى فاتح باطش لغناها ولمركزها الجغرافى.

ولكن على الرغم من كل هذه المعاناة فالقومية المصرية واجهت كل التحديات بقوة فلم تدع نفسها تنقهر أبداً. لقد فرضت نفسها حتى على غزاتها! من الهكسوس الى الرومان! لأنهم اضطروا لكى يستطيعوا حكم مصر المغلوبة لأن يتخذوا المواصفات الفرعونية، وأن يكتبوا أسماءهم بالهيروغليفية داخل الخراطيش، وأن يظهروا بكل العلامات الملكية المميزة لهورس، وأن يوافقوا على الإعلان بأنهم ورثة عرشه، بل وأن يبينوا «مصريتهم» فى كل مناسبة. ولم يكن هذا كله لمجرد الذوقيات التى ما كانت لتنطلى على المصريين، بل كانت ضرورة قاطعة لابد منها لتحاشى التمرد والثورات الدامية التى سادت عصور السيطرة الأجنبية. فمصر خلالها لم تنجرح كرامتها القومية فقط بل قد انطعنت أيضا فى صميم ديانتها المتوازية مع هذه القومية.

ومع ذلك فكل هذه الاحتياطات التى حاول المغير أن يخدر بها القومية المصرية لم تفلح تماماً. لأنهم لم ينجحوا فى سبرغور هذه القومية الى أعماقها. والدليل على ذلك أن كل الآثار التى تخلفت عن هذه العصور قد تخربت. كذلك تبدو هذه القومية فى عنفوانها فى الحرب ضد الهكسوس. أما الاحتلال الفارسى ما بين القرنين السادس والرابع ق. م. فإننا نجد فى البرديات المتبقية عنه عنف المقاومة الشعبية وتلاحق الثورات الدامية. لقد كانت حالة مصر أشبه بأمواج البحر: تشتد موجة من الثورة فيحكم مصر أمير من أبنائها، ثم لا يلبث الفرس أن يستعيدوا سلطتهم ــ وهكذا بالتتالى. وهذا كله حدث على الرغم من أن الحاكم المعتدى قد اتخذ لنفسه كل المواصفات المصرية بما فيها الادعاء بالانتساب الى هورس.

وهناك واقع مذهل نجده فى قواميس مصر التى وصلتنا عن هذه الحقبة ــ هى أن أسماء الأشخاص قد خرجت على كل القواعد التقليدية! كانت أسماء غريبة ومركبة: بل كانت لعنات صريحة: «فليقاومهم هورس»! «فلتقوى عليهم إيزيس»! «فلتغر عليهم عين هورس»! «فليسحقهم أمون»! تلك كانت الأسماء التى أطلقها المصريون تلقائيا على أبنائهم. ولو أن أحد الولاة الفارسيين حتم عليهم تفسيرها لأجابوه بأنها لدفع الأرواح الشريرة بعيداً. ولكن الجميع كانوا يعرفون تماماً أنها موجهة ضد الفرس. واتساع مدى هذه العادة فى التسميات بين المصريين فى ذلك العهد شاهد بليغ على حيوية العاطفة القومية ضد المغيرين الأجانب.

بل إنه لدينا شهادة أبلغ. فمنذ أقدم العصور كانت المداخل المؤدية الى المعابد مخصصة لاجتماع الشعب ليتفرج على التمثيليات الدينية و يستمع ببطولة ملوكه وكهنته الوطنيين. وفى هذه الفترة يبرز بين القصص التقليدية سينار يو جديد. و يشهد على شعبية هذا السينار يو عدد البرديات التى سجلوه عليها. فمثلا يدور أحدها حول «عودة ست»: هذا الإله المتمرد الذى طرده هورس فعاد واستولى عنوة على عرش هورس. فيتحرك الآلهة و يطردون هذا المعتدى شر

طردة بين هتاف الجماهير وتهليلهم ، و يعيدون العرش الى صاحبه الشرعى الذى هو هورس . ومثل هذه التمثيلية لم يرد لها ذكر إطلاقا قبل هذه الفترة . فمن الواضح إذن أنها « تمثيلية الساعة » أو « المأساة المفتاح » . لأن ست لم يكن سوى ملك الفرس الذى كان مباحاً ــ تحت ستار الأسطورة ــ أن يوضع موضع السخرية والإهانة .

ومما كان يقال فى هذه التمثيليات : ياسيد الجرائم ، يا أمير الكذب ، ياقائد قطاع الطريق !

من مسرتك الخيانة . ومن مكرهتك الوئام . مدعى حتى بين الآلهة !
تتآمر للحرب وتستثير القتل وتستفز الى التمرد !
سيد البهتان ومؤلف الزور !
متفنن فى الهتك ومقترف الشرور !

وتنتهى التمثيلية بطرد ست على أنغام القرار الذى ينشده الشعب :

لقد طردوك فى خزى الي آسيا ! فمصر تطيع هورس وتنقضّ عليك !

ومن السهل أن نتصور النشوة التى تثيرها هذه التمثيلية فى الشعب إذ هى تعبير عن كل ما فى عمقه من حقد ومن تطلع . ووجود هذه التمثيليات القومية التى ما كان ليسمح بها أى رقيب فى أيامنا يمكننا من أن نقدر الغليان الوطنى الذى كان يفور فى مصر أيام حكم الفرس .

تلك كانت القومية الفرعونية كما توضحها البرديات : إنها قومية ذات أساس دينى يرى فيها البعض رحابة الصدر بينما يرى غيرهم فيها التعصب .

وهذه القومية لم يشبها إطلاقا أية تفرقة عنصرية . و يرجع هذا من غير شك الى أنها احتفظت على مدى الأيام بالدرس الذى تلقنته عن أصولها . فمنذ البداية بنى الوطن المصرى الموحد إيمانا أدى الى قيام الدولة الواحده تحت قيادة ملك واحد . ومن ثم كانت القومية المصرية التعبير الصافى عن هذا الإيمان .

٢١ ــ ولو أننا تدرجنا من عصر الفرس الى عصر البطالسة لوجدنا أن الاسكندر الأكبر اختط سياسة ساروا عليها الى نهاية حكمهم . وهذه السياسة هى أن كل واحد منهم ، حين كان يؤول إليه العرش ، يذهب لغاية الواحة الخارجة ليقف داخل معبد أمون و يعلن أمام تمثال الإله إنه سليل الفراعنة !

ولقد زعم البطالسة أنهم ــ بهذا السفر الشاق وهذا الإعلان الرسمى ــ قد نجحوا فى تخدير العاطفة القومية المصرية . و بقوة هذا الزعم فتحوا المدارس اليونانية تصوراً منهم بأنهم ــ عن طريقها ــ يصبغون الفكر المصرى بالصبغة الهللينية . ومع أنهم نجحوا فى أن يجعلوا المثقفين من

المصريين يتحدثون و يفكرون و يكتبون باللغة اليونانية باتقان مذهل إلا أنهم فشلوا فشلا تاماً فى الحصول على قلوبهم : لقد ظلت قلوبا لا تدين بالولاء إلا لمصر (١) .

وهنا أيضا تظهر القومية المصرية صراحة فى عدد الثورات التى توالت واحدة بعد الأخرى تحت الحكم البطليموس . فمع أن المصريين لم يفلحوا فى التخلص نهائيا من هؤلاء البطالسة الذين كان فى يدهم السلطان والسلاح إلا أنهم استمروا فى مقاومتهم . وإن ما تبقى من البرديات فيه الدليل القاطع على هذا الفوران الشعبى المستمر .

وجاء الرومان . ومع قسوتهم و بطشهم اضطروا هم أيضا الى أن يظهروا أمام الشعب المغلوب بمظهر الفراعنة . فعبدوا ايزيس وغيرها من آلهة مصر . وعلى الرغم من ذلك فقد اضطرتهم القومية المصرية الى أن يقيموا حاميات عسكرية فى الاسكندرية ووسط الدلتا و بابلون (مصر عتيقة) ، وفى مناطق بنى سويف والمنيا وأسيوط والأقصر . لماذا ؟ لأن القومية المصرية الجريحة ظلت تنتفض على الرغم من آلامها . وظلت الموجات الثورية تتوالى ــ حتى لقد قال أحد الكتاب إن الثورات المصرية جعلت الرومان يترنحون . وما كل هذه الحاميات إلا دليل على هذا الترنّح (٢) .

ولئن كانت المقاومة المصرية قد اتخذت شكل الانتفاضات الشعبية المتتالية فى أيام البطالسة والرومان ، فإنها اتخذت شكل الاستشهاد فى أيام الرومان والبيزنطيين . لأن المقاومة فى الحالة الأولى كانت تهدف الى وقاية الوعى القومى إذ قد عبد البطالسة والرومان الآلهة المصرية . أما فى الحالة الثانية فقد أصبح الهدف مزدوجاً ــ هو وقاية القومية الوطنية و وقاية العقيدة الأرثوذكسية معا لأنه ــ حتى فى العصور السابقة على الانقسام الكنسى ــ وصف رجال الكنيستين القسطنطينية والرومانية المصريين بأنهم فى دفاعهم عن الأرثوذكسية إنما يدافعون عن قوميتهم المصرية !

٢٢ ــ ولنتأمل هنا ما قاله بعض المنصفين الغربيين فى هذا الموضوع . فقد قال ماسبيرو (٣) ما ترجمته : « لقد كان الرهبان المصريون على درجة عظيمة من البسالة لأنهم كانوا كلهم مصريين صميمين لم يختلطوا بالأجانب » . بينما يعلن دوشين : « إن الرهبان لكونهم المدافعين الملتهبين عن كنيستهم الوطنية فقد اشتركوا فى المنازعات السياسية والدينية فظلوا مدى قرون عديدة خطراً كبيراً يهدد الامبراطورية » (٤) .

---

(١) يقول بيرچوجيه المستشرق الفرنسى فى مقال له بعنوان : « من مصر اليونانية الى مصر القبطية : « إن الشعب المصرى قد جذب الأجانب ولكنه كان مزهوا بتقاليده الغائصة فى القدم » . ــ قصة الكنيسة القبطية حـ١ ص ٣٤

(٢) « القاهرة » ص ٢٨ ، أليس فى هذه الانتفاضات المتتالية دليل على أن المصريين ليسوا بالشعب الخانع المستكين الذى صورته لنا الدعايات المغرضة ؟

(٣) مستشرق فرنسى اشتغل رئيسا لمصلحة الآثار المصرية فترة من الزمن ، وهو أول من نبه الرأى الأوروبى العام الى تراث مصر القبطية ، راجع مقاله « دراسة بردية أفروديتى ــ نشره فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية عدد سنة ١٩٠٨ ص ٢٥

(٤) عن كتابه « تاريخ الكنيسة » المجلد الثانى ص ٥١١

على أن أروع اعتراف بهذه القومية الجارفة هو ما جاء على لسان ما سپيرو أيضا عما حدث بعد الانشقاق الذى أدى اليه مجمع خلقيدون سنة ٤٥١م ، قال : « ولكن إن كان ديسقورس قد انهزم فقد بقى المصريون الذين أصبحت لديهم المقاومة لمجمع خلقيدون والتعلق بعقيدة كيرلس وديسقورس بمثابة الرمز للمقاومة الشعبية . فقد انفكت من عقالها قوة كانت كامنة ، فكها اللاهوتيون فصارت أبعد سلطاناً من الأساقفة أنفسهم ! تلك القوة لم تعد مجرد الكهنوت المصرى بل أصبحت الجنس المصرى كله الذى تألف منه مذاك موكب ديسقورس وخلفائه » (١).

٢٣ ــ والآن لنطوِ القرون ونقف أمام البابا الوقور الأنبا كيرلس الخامس . فقد اعتلى السدة المرقسية سنة ١٨٧٤م ، وفى سنة ١٨٨٢ احتل الانجليز مصر ، فأعلن قداسته أن الانجليز ليسوا معتدين سياسيين فقط بل هم ــ فوق ذلك ــ قد خانوا السّيد المسيح نفسه . كذلك أعلن أن دعاة التبشيرهم أيضا معتدون دينيا وسياسيا : دينيا لأنهم يستهدفون استدراج القبط بعيداً عن كنيستهم الأم ، وسياسيا لأنهم يساندون الاستعمار . ونتيجة لموقفه القومى الحاسم تلاعبت السياسة الانجليزية . وبما أن الله لا يدع نفسه بلا شاهد ، فهو أيضا لايدع أصفياءه بلا شاهد . فقال كاتب انجليزى : « من الواضح أن البطريرك الذى استبعد (الى الدير) بأمر اللورد كرومر قد أثبت فى النهاية أنه سيد الموقف . واضطرت الحكمة العالمية التى استند اليها الحاكم السياسى لمصر أن تنحنى أمام التأثير الكهنوتى المرهف ... لقد عاد البطريرك (من المنفى) كعملاق تجدد نشاطه وكعملاق أيضا استخدم نفوذه » (٢). فالصراع فى عمقه كان بعينه الصراع الذى تكرر على مدى الأجيال ــ أى أنه كان صراع القومية المصرية مع الدخيل المغتصب المتآمر . فقد كان البابا الاسكندرى المائة والثانى عشر واقفاً بالضبط موقف سلفائه الذين يؤلفون السلسلة المجيدة الممتدة من مارمرقس الى الآن . لقد عرف هؤلاء الآباء قيمة الوديعة التى ائتمنهم عليها رب الكنيسة وبالتالى نحو الشعب الموكول أمره اليهم ، ونحو مصر التى نبتوا فى أرضها وعاشوا من أجلها . ولأن الأنبا كيرلس الخامس كان على وعى بهذا كله فقد فعل ما فعله سلفاؤه : وقف فى الخط الأمامى من المعركة وقادها بنفسه حتى النهاية ...

و يتضح لكل من يتتبع سيرة الأنبا كيرلس الخامس أنه كان من أعجب الآباء الذين قادوا دفة الكنيسة القبطية . فقد تسلم مقاليد الرياسة وعمره خمسون سنة ، ومنحه رب الكنيسة أن يرعاها ثلاثاً وخمسين سنة وتسعة شهور . ولقد عاش فترة كلها هدير وفوران . وظل طوالها الربان الساهر الذى تركزت عيناه على الأمواج الصاخبة : إنه قد رأى مصر تجوز آلام المخاض ثم تهلل برؤية هذه الآلام تنتهى بانبثاق فجر جديد . فهو قد تعاطف مع عرابى الوفى الساذج . إنه تجاوب مع مصطفى كامل الملتهب الذى ومض كالبرق . إنه تشارك مع سعد زغلول المارد الأسمر الذى لخص فى شخصيته الجبارة روح مصر الوثابة التى لم يقهرها الزمن . ولقد جاشت نفس

---

(١) المقال عينه ص ٢٢ ، وهذه الحقيقة عينها قد شهد بها نورمان پاينز إذ قال بأن المصريين كانوا دائما شعبا ذا قومية ، راجع الترجمة العربية لكتابه « الامبراطوريه البيزنطية » بقلم حسين مؤنس ومحمود يوسف زائد ص ٤٧ ، قصة الكنيسة القبطية « للمؤلفة حـ ٢ ص ١١ ــ ١٢

(٢) هو أ . هـ . ليدر فى كتابه الأبناء العصريون للفراعنة ص ٢٦١ ــ ٢٦٢

الأنبا كيرلس الخامس بكل هذه الانفعالات والأحاسيس وترددت أصداؤها فى أعماقه فسخر كل مواهبه لإخراجها (١).

٢٤ــ ولنمتد لبضع سنوات فقط لنعرف أن الجيش البريطانى بعد أن أجلى عن مصر استمر مرابطا على ضفتى القناة بحجة الدفاع عن حرية الملاحة الدولية مما جعل المصريين يستمرون فى نضالهم : تارة بالعنف وأخرى بشىء من المسالمة . وفى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٥١ أقيم سرادق كبير فى ميدان التحرير وتقرر أن يقوم الشعب بمظاهرة صامتة تطوف شوارع القاهرة وميادينها وتنتهى عند هذا السرادق . فأصدر الأنبا يوساب (البابا الـ ١١٥) تعليماته الى رجال الاكليروس بالاشتراك فى هذه المظاهرة ونشرت الأهرام تعليماته هذه يوم ١٠ منه جاء فى آخرها : « .... إن قبط مصر كانوا دائما فى مقدمة الصفوف فى الجهاد والتضحية . وكان بعض رجال الاكليروس من قادة الثورة سنة ١٩١٩ ، كما أن دماء القبط اختلطت بدماء مواطنيهم المسلمين فى معركة الحرية والاستقلال وارتوت أرض مصر بها » (٢) .

وفى وقتنا الحاضر لخص قداسة الأنبا شنودة الثالث (أطال الله حياته) هذا الشعور بالقومية إذ أعلن : « إن مصر ليست وطناً نعيش فيه بل هى وطن يعيش فينا » .

وهذه المتابعة قد أوضحت لنا أن اشتعال القلب المصرى بحب مصر قد تأجج منذ العصور السحيقة واستمر على اشتعاله مدى التاريخ المصرى الطويل الطويل ، ومازال مشتعلا الى الآن .

∴

٢٥ــ وكما تابعنا تطور الوعى الروحى الفرعونى ، وكما تتبعنا الاشتعال بالقومية المصرية الى عصرنا الحالى هكذا يليق بنا أن نتابع النمو الروحى المصرى بعد أن آمن المصريون بالسيد المسيح ــ حتى وإن كان البعض منه معروفاً لدى الكثيرين ــ لنعرف سر الترابط بين الماضى والحاضر .

وكلنا يعرف أن مارمرقس الرسول هو البشير الذى حمل رسالة معلمه الى بلادنا . على أن لنا معه وقفة قصيرة فى أورشليم قبل مسايرة تاريخه فى بلادنا . وأول ما يجب أن نعرفه ــ بل ونؤكده ــ أن كاروزنا العظيم هو أحد السبعين الذين عينهم الرب لعمله المبارك بعد اختياره الاثنى عشر . ولقد كانت أم مرقس الخميرة الخفية التى ساهمت فى تخمير الوعى الروحى فى قلب ابنها . فالعلية التى أكل فيها الرب العشاء الأخير مع تلاميذه كانت فى بيتها ، وإختباء التلاميذ بعد الصلب الرهيب كان فى العلية نفسها التى ظلوا يجتمعون فيها حتى حل عليهم الروح القدس هناك . وبعد هذا الحلول الإلهى أصبحت العلية مقر اجتماعهم للصلاة . فإليها قصد

---

(١) « قصة الكنيسة القبطية » حـ ٥ ص ٤٤ ــ ٤٥ و٩٣ ــ ٩٤

(٢) شرحه حـ ٦ ب ص ٥٧

بطرس حين أخرجه الملاك من السجن (١) . وهى لهذا السبب معتبرة أول كنيسة مسيحية فى العالم أجمع . فليس بغريب على مرقس أن يكرز و يعلم فى أكثر من بلد وهو قد نشأ فى كنف أم مثل هذه . والتركيز على الأم يرجع الى أنها كانت المسئول الوحيد عن تربية ابنها إذ ترملت فى شبابها .

ثم حدث أن اختلف الرسل فيما بينهم حول ختان الأمميين قبل صبغهم بالمعمودية المقدسة . فاجتمعوا كلهم معا وتشاوروا بعد الصلاة ثم قرروا عدم ختان هؤلاء الأمميين لأن المسيحية دين قائم بذاته إذ قد انتصب الصليب كحد فاصل بين العهدين القديم والجديد (٢) .

ولنرافق كاروزنا الى الاسكندرية التى كانت العاصمة الروحية للعالم حين وصلها : فعلّم المصريين ، وكتب لهم انجيله بناءً على طلبهم ، وسلمهم القداس المعروف « بالكيرلسى » ، وافتتح لهم المدرسة التى صارت منارة وهاجة للعالم : دينيا ومدنيا ــ مدى القرون الخمسة الأولى بعد الميلاد العجيب .

وفى الاسكندرية تلاقى الحكماء المصريون بفلاسفة اليونان ومعلمى الناموس والمجوسيين الفرس والمتصوفين الهنود . ووسط هذا الجمع الجليل من أكبر المشتغلين بالأمور التى تعلو على المادة برزت المسيحية . وكان آباؤنا الأوائل ومعلمو المدرسة الاسكندرية متضلعين من كل التعاليم المتباينة التى يتباحث فيها هؤلاء العلماء : إنهم استهدفوا أن يتمكنوا من هذه التعاليم قدر استطاعتهم ليناقشوا أساطينها فيها وليبادلوهم الحجة بالحجة . ولقد بلغت بهم دقة المعرفة أن اكتسبوا أن بعض الفلاسفة اذ استهوتهم المسيحية فآمنوا بها هم وغيرهم . إلا أنه كان بينهم من اجتذبته المسيحية ولكنه لم يكن على استعداد روحى لأن يترك آلهته . فاقترح على آبائنا آن يضموا السيد المسيح الى هؤلاء الآلهة ليقتبلوه . ولكن آباءنا وقفوا وقفة حاسمة لتلك التى وقفها الرسل بأزاء ختان الأمميين . وكما أصر بولس الرسول ومشايعوه على فتح باب الإيمان المسيحى للأمميين دون إلزامهم بالتهوّد هكذا أصر آباؤنا على وحدانية السيد المسيح : فهو وحده فى جانب وكل الآلهة فى الجانب الآخر . وبهذا الموقف فصلوا بين المسيحية والوثنية ، وبهذا الفصل جعلوا المسيحية دينا للجميع ، إنهم ــ بهذه الخطوة ــ نادوا على مختلف الشعوب ونجحوا فى اكتسابهم الى ربهم .

٢٦ ــ وهناك نقطة هامة للغاية مازالت مجهولة من الغالبية العظمى : هذه النقطة هى مدى الكرازة التى قامت بها كنيستنا . ففى جزيرة أيونا (بإيرلندا) سبعة من الرهبان القبط مدفونين ، وهم باعتراف الإيرلنديين وغيرهم كانوا أول من بشر بالسيد المسيح هناك . وفى مدينة

---

(١) أعمال ١٢ : ١١ ــ ١٧ ، راجع ايضا « قصة الكنيسة القبطية » حـ ١ ص ١٩ ــ ٢٧

(٢) أعمال ١٥ : ١ ــ ٢٩ ، غلاطية ٢ : ١١ ــ ٢١ ــ وهنا ملحوظة لابد منها وهى : إن كان الرسل الذين نشأوا يهوداً وعاشوا تحت الشريعة اليهودية الى أن اختارهم السيد المسيح قد رفضوا التهود ــ أفلا يليق بنا نحن « الأمميين » الذين سالت المسيحية فى شرايينهم ما يقرب من ألفين سنة : أفلا يليق بنا أن نتحرر تماما من التهود ؟!

جلاستنبورى (فى أواسط انجلترا) كنيسة ترجع الى القرن السادس يتوسطها صليب حجرى كبير حفرت على أضلاعه مناظر من سيرة البار الأنبا بولا والعظيم الأنبا أنطونيوس. وفى القداس الإلهى المحفوظ فى مخطوطة فلا مندية (١) وردت الجملة التالية: «بارك يارب رهبان مصر الذين أوصلوا الينا الإيمان». والى جانب هؤلاء الكارزين وقفت امرأة اسمها ڤير ينا، وهى من مركز قوص بمحافظة قنا. وكانت قد ذهبت مع الكتيبة الطيبية الى سويسرا لكونها ممرضة. فلما أباد الامبراطور مكسيمينوس هذه الكتيبة عن بكرة أبيها ظلت ڤير ينا بتلك البلاد. وهناك علمت أهالى منطقة چنيف المسيحية كما علمتهم قواعد الصحة. وحين انتهت من هذه الحياة بنى لها الأهالى كنيسة على اسمها فى مدينة زورزاخ (٢). ولكن بما أن جميع هؤلاء الكارزين لم يفرضوا الخضوع للبابا الاسكندرى، وبما أن أوروبا ــ فى أكثر من مناسبة اقتحمت الشرق الأوسط وسيطرت عليها لفترات، فإن الجهود التى بذلها المصريون فى نشر المسيحية هناك قد تاهت وسط كل هذه الأحداث.

وفى العصور الأولى ــ قبل الانقسام ــ كان جميع المسيحيين شرقا وغربا يعتبرون مصر أرضا مقدسة ثانية: أولا لمجىء السيد المسيح وأمه العذراء القديسة ويوسف اليها وقضاء فترة يقدرها البعض بسنتين وثلاثة شهور وبضعة أيام. وثانيا لأنها زخرت بالشهداء ولباس الصليب، كما أنها قدمت لكل الكنائس التعاليم الأساسية فى العقيدة المسيحية.

٢٧ ــ وهنا أيضا نقف لنتفحص ما هى التقدمة التعليمية التى قدمها آباء كنيستنا المحبوبة؟

إن المسيحية ــ منذ نشأتها ــ لم تقابل الاضطهاد فقط بل واجهت شتى التعاليم الخاطئة. ونحن نعرف أن رب المجد قد أعلن أنه غلب العالم. ولكنه فى الوقت عينه قال: «كما أرسلنى الآب كذلك أرسلكم أنا» (٣). فهو الحامى الغالب ولكنه يتطلب منا أن نساهم بنصيبنا فى هذا النصر. فمثلا حين أقام لعازر من الموت قال أولاً للواقفين حوله: «ارفعوا الحجر». فهل ذاك الذى نادى على الميت فقام كان لا يستطيع أن يقول للحجر. ارتفع؟ بالطبع كان يستطيع ــ فهذا العمل هين للغاية إذا قيس بإقامة ميت كان له أربعة أيام فى القبر. ولكنه طلب هذا الطلب ليعلمنا أن ما فى مقدورنا علينا أن نؤديه ثم نترك الأمر له ليكمل نقائصنا. ولولا هذه الضرورة التى وضعها على أحبائه لما كرز الرسل ولما جاهد المؤمنون به على مر العصور.

---

(١) كانت بلچيكا وهولندا قديما تؤلفان دولة واحدة هى الدولة الفلامندية وكانت تجمعها أيضا لغة واحدة هى اللغة التى كتب بها المخطوطة المشار اليها وقد ترجم المستشرق البلچيكى لوفور Lefort ما فيها من صلوات الى الفرنسية

(٢) قصة الكنيسة القبطية حـ ١ ص ١٣٠ ــ ١٣٤

(٣) يوحنا ١٧ : ١٨

وبعد أن استقرت المسيحية فى بلاد مختلفة بدأ يظهر المنادون بالتعاليم الخاطئة ــ أى المبتدعون .

وفى مواجهة المبتدعين برز آباء كنيستنا المحبوبة . وأهم هذه البدع هى : ١ ــ الآريوسية وهى إنكار لاهوت السيد المسيح . فسعى الأنبا الكسندروس (البابا التاسع عشر سنة ٣٠٣ ــ سنة ٣٢٦ م) سعياً متواصلاً فى سبيل إقناع المبتدع أريوس بالعودة الى العقيدة الأرثوذكسية (أى العقيدة القويمة) . وفى النهاية انعقد المجمع المسكونى الأول بناءً على دعوة الامبراطور قسطنطين فى نيقية سنة ٣٢٥م . ولبى الدعوة ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا من كل البلاد التى كانت مسيحية آنذاك (من إيران الى إسبانيا) . وبعد الصلوات والنقاش تفصيليا حول إيمان الكنيسة بالسيد المسيح صدر قرار مجمعى بحرم أريوس . إلا أن الآباء رأوا فى هذا الحكم الرد السلبى وهو معاقبة المبتدع . فأرادوا أن يقدموا رداً إيجابيا يتلخص فى كتابة العقيدة بحيث يعرف الجميع : المسيحيون وغيرهم ــ حقيقة الإيمان . فاختاروا لكتابة هذا الملخص ثلاثة من بينهم هم : الأنبا الكسندروس وشماسه أثناسيوس (الذى أصبح فيما بعد البابا الاسكندرى العشرين حامى الإيمان القويم) ، وليونثيوس أسقف قيصرية الكبادوك ــ أى أن المجمع العظيم اختار مصريين وسوريا . فكتبوا ما أصبح « قانون الإيمان » ــ من أول بالحقيقة نؤمن ... الى جملة نعم نؤمن بالروح القدس » التى اختتموا بها القانون آنذاك .

ثم دعا الامبراطور ثيئودوسيوس الكبير الى عقد مجمع مسكونى ثان سنة ٣٨١ م فى القسطنطينية لأن مقدونيوس أسقف هذه العاصمة كان قد أنكر لاهوت الروح القدس . وحضر هذا المجمع مائة وخمسون أسقفا . وسلكوا مسلك آباء نيقية فى السعى الى إقناع المبتدع . ولما رفض كل محاولاتهم أصدروا الحرم عليه كذلك . وقد استكمل الأنبا تيموثيئوس الأول (البابا الثانى والعشرون سنة ٣٧٨ ــ سنة ٣٨٤ م) ــ بناءً على طلب مجمع ــ استكمل قانون الإيمان الى آخره كما نقوله للآن .

وحين وصل الأنبا كيرلس الأول (البابا الرابع والعشرون سنة ٤١٢ ــ سنة ٤٣٥م) الى السدة المرقسية وجد أن الشباب الاسكندرى يتسلى بقراءة عشر مقالات كتبها الامبراطور يوليانوس الجاحد ضد المسيحية فنقضها واحدة واحدة ولم يكد ينتهى من نقضها حتى ظهرت البدعة النسطورية التى كان يروجها نسطور أسقف القسطنطينيه أيضا . وقد قال هذا المبتدع إن المسيح ــ الله منفصل عن المسيح ــ الإنسان وبالتالى فالسيدة العذراء ليست والدة الإله لأنها أم الرجل يسوع . وللمرة الثالثة انبرى الخليفة المرقسى ليقنع هذا المبتدع بكل مقدراته . وللمرة الثالثة تقرر عقد مجمع مسكونى دعا اليه الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير . فحدد لعقده مدينة أفسس سنة ٤٣١م . وفى هذه المرة أيضا رفض المبتدع أن يتوب . فصدر عليه حكم الحرم . وأمام هذا المجمع قدم البابا كيرلس مقدمة قانون الإيمان مؤيداً أمومة العذراء القديسة لابن العلى . ومذاك أخذت الكنائس كلها عنه تعليمه عن وحدة الطبيعتين الإلهية والإنسانية فى السيد المسيح استناداً الى بشارة الملاك والى قول يوحنا البشير : « والكلمة صار جسداً » . فهو « الله ــ الإنسان » وليس

« الله والانسان » . وبالتالى فاللقب الطقسى الرسمى للعذراء مريم هو « والدة الاله » (ثيئوتوكس) (١) .

٢٨ ــ وهناك حقائق معروفة ومع ذلك لابد من توكيدها كى لا تغيب عن الأذهان وسط زحمة الدعايات والمشاغل . وإحداها هى أن الرهبنة نشأت فى مصر : الرهبنة بكل أنواعها . فاختط الأنبا بولا حياة العزلة التامة مع الله . ثم جمع الأنبا أنطونيوس بين حياة الوحدة وحياة الشركة ، واسمه الشائع « أبو الرهبان » ، أما مبدع الأكوان فقد سماه « أم رؤوم » ــ ذلك أنه كان يشتهى الاستشهاد فأنبأه ملاك الرب بأنه لن ينال شهوته لأن الله أقامه معلماً للكثيرين والكثيرات وهو لهذا السبب « الأم الرؤوم » . وبعد ذلك أنشأ الأنبا باخوم أول دير للرجال فى العالم بأسره فى منطقة دندرة بالصعيد الأعلى ، ولم يلبث أن بنى للسيدات ديراً فى المنطقة عينها . وهذا هو السبب فى تلقيبه « بأبى الشركة » . وهذا التدرج فى الرهبنة قد بدأ به مصريون . فالبار الأنبا بولا من الاسكندرية ، والعظيم الأنبا أنطونيوس من قمن (بنى سويف) ، ومرهف الإحساس بالآخرين الأنبا باخوم من اسنا .

وهذه الحياة الرهبانية التى عاشها بنو مصر وبناتها قد انتقلت منهم الى أنحاء العالم عن طريق تبادل الزيارات بينهم وبين الأوربيين ، وعن طريق الكتابة التى سجلوها هم كما سجلها عدد ممن زاروهم وعاشوا معهم . وهؤلاء الأجانب يقرون بأن حياة الرهبان ــ فى حد ذاتها ــ كانت القوة الدافعة لهم على السير فى طريقهم : إنهم كانوا يعيشون مسيحيتهم بالفعل ونادراً ما تكلموا عنها .

وثمة تعليم آخر بدأه الآباء المصريون هو الخاص بالسيدة العذراء . فهم أول من لقبوها « ثيئوتوكس » ، وهم أول من رسموا أيقونات لها . وهنا نقطة لابد من إبرازها : فالقبط وكل الأرثوذكسيين لا يصورونها إلا وهى حاملة ابنها الإلهى على ذراعها الأيسر عملاً بقول المرنم : « قامت الملكة عن يمين الملك » وتوكيداً لأمومتها العليا . فهى نفسها حين أعلنت أن جميع الأجيال تطوبها قد أوضحت أن هذا التطويب سببه كونها المختارة لأن تكون أم ابن العلى . فرسمها بمفردها وعلى الأخص فى انحناءة رأسها والدمعة على خدها مخالف لوصف الانجيل لها ، فيوحنا الحبيب سجل لنا بأنها كانت **واقفة** عند صليب ابنها . ثم إن الآباء أعلنوا تكريم والدة الإله بتخصيص أمسيات السبوت من شهر كيهك لمديحها بالتسبحات المعروفة باسم الثيئوتوكيات . فالشهر المريمى القبطى هو شهر كيهك لانه ينتهى بالميلاد المجيد . وقد كرسه الاباء لتكريمها منذ القرن الميلادى الثالث .

---

(١) للوقوف على تفاصيل هذه الأحداث راجع « قصة الكنيسة القبطية » حـ ١ ص ١٥٤ ــ ١٨٥ و٣٢٨ ــ ٣٣٦ و٣٨٧ ــ ٤٣١ ، ولنلحظ أنه عند ذكر « المجمع » فى القداس الإلهى نقول والثلاثمائة عشرة المجتمعين بنيقية والمائة والخمسون بالقسطنطينية والمائتان بأفسس . ونذكر هؤلاء الآباء بصيغة الحاضر لأن الكنيسة ــ مثل ربها ــ تعلو فوق الزمن : يرتبط ماضيها بحاضرها وبمستقبلها

٢٩ــ ثم باعد مجمع خلقيدون (سنة ٤٥١م) بين الكنيسة القبطية وكنستى القسطنطينية ورومية . ولكن تعاليم كنيستنا كانت لا تزال النبع الصافى الذى يرتوى منه الجميع . ومن الأدلة على هذه الحقيقة أن امبراطور القسطنطينية حين أراد أن يقيم بينه و بين ابن شرلمان ملك فرنسا علاقات من المودة قدم له هدايا بينها كتاب لأحد تلاميذ أوريجانوس يغلب الظن أنه مما كتب البابا ديونيسيوس (البابا الاسكندرى الرابع عشر سنة ٢٤١ ــ سنة ٢٦٢) . وهذا التبادل الودى حدث فى الربع الأول من القرن التاسع . وهكذا استمرت تعاليم الآباء المصريين تسرى بين الشعوب وتؤثر على الأفكار على الرغم من الأحداث السياسية والتباعد الكنسى (١) .

٣٠ــ وهناك موضوع لا يزال أرضا بكراً للمشتغلين بالدراسات المصرية . وهذا الموضوع هو الاهتمام البالغ الذى كان يبديه القبط والمسلمون على السواء بالأمور الدينية . ولعظم عنايتهم بهذه الأمور كانوا يجتمعون معا ليتناقشوا و يتناظروا . كذلك كتبوا الرسائل العديدة فى الروحيات . وفى هذه الرسائل نجد المسلم يلقب « بالسائل » لأنه هو الذى كان يطرح الأسئلة . وإذا لم يقتنع برد من الردود اتخذ منه سؤالاً جديداً . بينما يوصف القبطى « بالمجيب » إذ عليه أن يعطى إجابة صريحة واضحة فى هدوء ومنطق.ومن الطريف أن هذه المناظرات كانت تقام دائما بأمر السلطان وفى حضرته . والى جانب هذه الاجتماعات الرسمية التى يدعو اليها صاحب الحكم فى مصر ، كانت هناك مداولات ودية ، إذ كان المتصوفة من المسلمين يسألون إخوتهم الأقباط عن أسرار إيمانهم . فيسارع القبط الى الإجابة عليهم . وإن الاطلاع على ما كتب فى هذه الموضوعات ليشبع النفس إذ يعرف القارىء مدى تعمق القبط فى دراسة عقيدتهم وحسن دفاعهم عنها . ومن أبرز « المجيبين » الأنبا كيرلس الثالث (البابا الخامس والسبعون ، سنة ١٢٢٦ ــ سنة ١٢٣٤م) ، والأنبا بولس البوشى أسقف بابلون المعاصر له . ولقد حدث أنهما تناظرا مرة أمام السلطان الكامل ابن العادل أيوب ، فأعجب بما قالاه إعجاباً أدى الى إقامة صلات متينة من المودة بينهما و بينه . ولقد استجاب الأنبا بولس البوشى لرغبة الشعب فوضع كتاباً بعنوان « كتاب المناقشات » لا تزال نسخة واحدة منه باقية للآن .

ومن الموضوعات التى شغلت الأذهان فى مصر خاصة وفى الشرق عامة موضوع « المصير المحتوم والحرية الإنسانية » (٢) وكان هذا الموضوع الشغل الشاغل للمفكرين ، وعلى وجه التجديد ، المفكرين الذين عاشوا ما بين القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر ولما كان الأنبا بولس البوشى مرشداً للنفوس ، فقد رأى أن يدرس هذا الموضوع درساً وافيا من الناحيتين : العقلية والوجدانية . ثم وضع كتاباً ضمنه بحثه هذا . ولقد انتهى فيه الى أن الله وضع للإنسان الخطوط العريضة لحياته بأن أوجده فى عصر معين و بيئة معينة وأسرة معينة . و بعد ذلك منح الحرية للإنسان ليسلك بمقتضى إرادته الخاصة . فحق على الإنسان أن يعمل بهذه الحرية التى هى منحة

---

(١) « قصة الكنيسة القبطية » حـ ٢ ص ٤١٩ ــ ٤٢٠

(٢) إن هذا الموضوع لا يزال يشغل بال الكثيرين ولكنهم لم يعودوا يكتبون عنه كما فعل سابقوهم .

إلهية متوخيا رضى الله الذى منحه هذا الحق ، مذكرا نفسه باستمرار بأنها « حرية مجد أولاد الله »(١) .

٣١ــ ومن الشخصيات التى أنجبتها كنيستنا العريقة أنبا ميخائيل مطران دمياط (معاصر للأنبا يؤنس السادس البابا الرابع والسبعين ، سنة ١١٨٠ــ سنة ١٢٠٧م) . فهذا المطران كان فنانا كما كان مصريا صميما . وحين تأمل أبناءه وجد أن الكثيرين منهم يجهلون القراءة والكتابة . فأراد أن يوصل لهم بشرى الخلاص باللغة التى يفهمونها وهى لغة الفن . فرسم تسعين صورة للبشائر الأربع . وكل صورة من الصور التى ابتدعها خيال الأنبا ميخائيل هى مجموعة من المناظر توضح الحادثة أو الآية المكتوبة . فمثلا حينما أراد أن يوضح مجريات الأمور التى أدت الى مقتل أطفال بيت لحم رسم لهم فى ركن من الصفحة المجوس سائرين خلف النجم الهادى ، يليها صورتهم وهم واقفون فى القاعة الملكية وقد جلس هيرودس على العرش بينما انشغل الكهنة والشيوخ فى بحثهم الكتب . أما الصورة الثالثة فتبين هيرودس وهو يعطى تعليماته الى المجوس ، تتبعها صورة المجوس على الطريق خلف النجم مرة أخرى ، ثم صورة وصولهم الى بيت لحم وتقديمهم الهدايا ، فعودتهم من طريق آخر . وتنتهى هذه السلسلة من المناظر بصورة جند هيرودس يخطفون الأطفال من أمهاتهم و يقتلونهم ، ثم مجموعة من أولئك الأمهات الثكالى يبكين و يتساندن الى شجرة باسقة بينما حمل الجند جثث أطفالهم فى مقاطف ليوصلوها الى هيرودس . وهذه المجموعة من الصور مرسومة على الطريقة الفرعونية ــ أى أنها فى وصف واحد من غير فاصل بين الواحدة والأخرى وكل الأشخاص فيها واقفون جنبا الى جنب . ولولا أن هذه الصور مسيحية لظن من يراها أنها من العصر الفرعونى ــ وحتى تلوينها على النهج الفرعونى . وهى تجتذب القلب قبل أن ترضى العين وتتخلل سطور البشائر الأربع المكتوبة بالقبطية . وهذه المخطوطة محفوظة الآن بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم (مخطوط قبطى ١٣) . ومن الشائع أن الملك لويس التاسع أخذها خلسة حين عاد الى وطنه بعد أن فشل فى حملته الصليبية التى وقع فيها أسيراً فى أيدى المصريين سنة ١٢٥٠ م (٢) .

٣٢ــ ولقد وصل الى السدة المرقسية أنبا كيرلس الثالث (البابا الخامس والسبعون سنة ١٢٢٦ ــ سنة ١٢٣٤م) . وكان الى عصره ليس للقبط مطران فى أورشليم فكان بطريرك أنطاكية يعاون البابا الاسكندرى فى رعاية القبط بمناطق الشرق الأوسط . على أن البابا كيرلس الثالث وجد أن أعداداً كبيرة من شعبه صارت تعيش فى مختلف بلاد هذه المنطقة ، ولهذا السبب رسم لهم مطراناً باسم الأنبا باسيليوس وأوصاه بأن يتخذ من أورشليم مقراً لكرسيه . وهكذا امتد فرع للكنيسة القبطية الى مدينة الملك العظيم . وكان هذا البابا الساهر قد توقع أن يغضب بطريرك أنطاكية لهذا العمل ، فبعث له بخطاب مليء مودة بقدر ما هو مليء بالوعى الروحى . وفى الوقت

---

(١) « قصة الكنيسة القبطية » حـ ٣ ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧

(٢) قصة الكنيسة القبطية حـ ٣ ص ١٩٦ ــ ١٩٨

عينه بعث برسالة الى أبنائه المقيمين بأورشليم أعلن لهم فيها وحدة الإيمان الذى يربط بين الكرسيين الرسوليين : الاسكندرية وأنطاكية (١) .

٣٣ــ ولنتأمل الآن صلة يعرفها الكثيرون ــ هى صلة كنيستنا المحبوبة باثيوبيا . وقد بدأت هذه الصلة منذ سنة ٣٢٦م . على أن هناك العدد الوفير من القبط يزعم أن الكنيسة المصرية لم تؤد أية خدمات لابنتها الاثيوبية ! وأول خدمة عظمى وأكبرها هى أنها حملت البشارة لهذا القطر الشقيق . وحامل البشارة هو من غير شك مدرك لمسئوليته . واعتاد الاثيوبيون أن يستقوا معلوماتهم الدينية والأدبية من الأقباط ، لأن الرهبان القبط كانوا يترجمون لهم كل ما كتبه الآباء بالقبطية الى الأمهرية . ثم لما أصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية بدأوا (فى عهد الأنبا يؤنس السابع البابا الثامن والسبعون ، سنة ١٢٦٣ ــ سنة ١٢٨٦م) يترجمون ما يكتبونه بها . وفى ذلك العصر قامت حركة واسعة النطاق للترجمة . وفى الفترة التالية (أى فى القرن الرابع عشر) شملت الترجمة اللغة الجعزية التى ذاعت عن خلالها أغلب الكتب اللاهوتية والكنسية . وقد رأس هذه الحركة المطران القبطى . فعبر الاثيوبيون عن تقديرهم لمجهوداته بأن أطلقوا عليه لقب « الأب تراجومانا » . ومن نعمة الله أن تمت ترجمات عديدة وانتشرت لأن هناك كتبا قبطية كثيرة ضاعت فى الأصل (القبطى أو العربى) ولكنها بقيت فى الترجمة الحبشية .

والكتب وإن كانت أعظم التقدمات القبطية للاثيوبيين إلا أنه يضاف اليها الأعمال المعمارية الضخمة التى هى سلسلة من الكنائس تعرف باسم « لا ليبالا » . والمخطوطات الباقية من القرن الثالث عشر تصل بنا الى أن بنائها كانوا من القبط (٢) .

فإذا ما سايرنا التاريخ ووصلنا الى عصر البابا الكبير كيرلس الرابع (البابا العاشر بعد المائه ، سنة ١٨٥٤ ــ سنة ١٨٦١م) نجد أن سلطان مصر كان يمتد آنذاك الى الصومال عند حدود اثيوبيا . وكان لمصر جيش مرابط عند هذه الحدود . وحدث أن اتهم القائد الاثيوبى القائد المصرى بأنه تعدى الحد الفاصل بين الجيشين فأنكر القائد المصرى هذه التهمة . وخشى سعيد باشا والى مصر أن تقوم حرب . فرجا الى الأنبا كيرلس أن يكون وسيط السلام . وبالفعل قابل البابا الجليل امبراطور اثيوبيا الذى تفاهم معه ، وتمت معاهدة بين البلدين على أن يحترم كل منهما سيادة الآخر وعاد الأنبا كيرلس يحمل نص المعاهدة التى كتبها هو نفسه بخط يده .

ونلتقى بعد ذلك البابا الوقور الأنبا كيرلس الخامس الذى وضحت لنا قوميته المشتعلة وشفافيته الرهيفة . وبهذه المزايا شمل شعبه كله برعايته الأبوية . فقد حدث سنة ١٨٧٥ أن نشبت حرب بين اثيوبيا ومصر فكتب هذا البابا الوقور خطابا الى الامبراطور يوحنا كاسا جاء فيه :

---

(١) شرحه حـ ٣ ص ٢١٣ ــ ٢١٥

(٢) قصة الكنيسة القبطية جـ ٣ ص ٢٧٥ ــ ٢٧٩

« .... إن أهم واجبات الرياسة الروحية المحافظة على اتباع الأوامر الشريفة الانجيلية التى تقضى بأن تكون الكنيسة الرسولية ساعية فى سبيل المحبة التى هى أكبر أركان التعليم الانجيلى جادة فى طلب السلام والصلح اللذين هما أساس العمران محافظة جهدها على أداء المودة والإخلاص والطاعة لجانب من أولاهم سبحانه وتعالى زمام الحكم وسياسية الخلق .... » فجاءه الرد من الامبراطور يقول فيه : « .... عملاً برسالتكم لنا قد عزمنا على تجديد المحبة الأكيدة والمودة القديمة والمحافظة على ما وهب الله لنا ولأخينا من المحبة الملكية والصفح عما حدث من الاعتداء .... »

ثم إن البابا الوقور كتب بعد ذلك للامبراطور عينه يوصيه بأن يعامل المسلمين فى البلاد الحبشية بالرفق والعدل ، فتلقى منه خطاباً جاء فيه : « .... أماً ما ذكر فى رسالة أبو يتكم عن المسلمين المقيمين فى السلطنة النجاشية وما يتبعها من الأقاليم و وصيتكم لنا بأن نترفق بهم ونعاملهم بالرأفة ونسهل لهم ممارسة شعائر ديانتهم فأحيط شريف علمكم أنه لم يصدر منا شيء يكدر خاطرهم وحاشا لنا من ظلم خليقة الله .... » (١)

ولما انتقل الامبراطور يوحنا كاسا الى الدار الباقية خلفه على العرش الامبراطور منليك سنة ١٨٨٩م . وقد داوم البابا الوقور على مكاتبته كما فعل مع سلفه . ثم أضاف الى الرسائل إيفاد بعثة من رجال التربية ليتولوا التدريس فى المدرسة الابتدائية للبنين فى أديس ابابا فأراد الامبراطور أن يعبر عن تقديره لهذه الرعاية الأبوية بأن أطلق اسم البابا الوقور على المدرسة .

وبعد انتقال قداسة الأنبا كيرلس الخامس الى الأخدار السماوية اختير الأنبا يؤنس قائمقاماً باباويا فأولى الرهبان الايرتريين فى دير دبرابزين اهتمامه ، فبعث اليهم بخطاب ــ هذا بعض ما جاء فيه : « ... وحيث يهمنا الوقوف على أحوال ديركم المقدس والدرجة التى وصل اليها الرهبان فى المعرفة الدينية التى نرجو أن يزدادوا تقدماً فيها ليكونوا نوراً لبلادهم وكنيستهم ، فأملنا أن توافونا بأخباركم لكى نطمئن من جهتكم ونرفع صلوات الحمد لله على النعمة التى أعطاكم اياها بتمسككم بإيمانكم الأرثوذكسى .... ونحن مستعدون لإرسال ما يمكن أن تكونوا فى حاجة اليه من الكتب الكنائسية الخاصة بالعقيدة ، أو الأوانى أو الملابس الكهنوتية التى تلزم لكم بمجرد طلبها . كما وإننا مستعدون أيضا لمساعدتكم فى كل ما تطلبونه بما يعود على الدير وعلى أولادنا الرهبان والشعب بالخير والنجاح روحيا . وإله السلام يكون معكم و يثبتكم فى الإيمان المستقيم . و بركته تشملكم وله الشكر دائما (٢) .

وحينما أقيم الأنبا يؤنس بطريركا فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٨ وضع نصب عينيه السفر الى

---

(١) كتاب يوسف جرجس السكرتير الباباوى عن الأنبا يؤنس الـ ١٩ ، ص ٧٩ ــ ٨٢

(٢) شرحه ص ١٢٠ ــ ١٢١

اثيوبيا ليتفقد حالتها . وقد حقق هذه الرغبة بالفعل فغادر ميناء بورسعيد صباح الخميس ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٩ . وكان لمصر آنذاك قنصل فى أديس أبابا ــ هو فرج بك موسى ــ وقد رحّبت الحكومة المصرية كل الترحيب بهذه الرحلة إذ كانت تستهدف توثيق العلاقات المصرية الاثيوبية . ولما وصل الركب الباباوى الى ديراداوا صباح الأربعاء أول يناير سنة ١٩٣٠ أقام لهم حاكم المنطقة حفلة استقبال أنشد فيها الكهنة ترانيمهم الدينية ، وقد بدت على وجوههم وفى رنين أصواتهم إمارات الفرح والحماسة . كذلك رحب بهم الأستاذ توفيق ميخائيل المدرس بمدرسة هرر ــ وكان الوحيد الباقى من البعثة القبطية التى كان قد أوفدها قداسة البابا كيرلس الخامس . فتقدم أولاً ولثم يد الأنبا يؤنس ثم ألقى بضع آيات وعبارات باللغة القبطية استكملها بخطبة باللغة العربية .

وغنى عن القول أن القطار الباباوى من ميناء چيبوتى الى أديس أبابا قد وقف فى محطة كل عاصمة مما مر عليها ــ فقد رست الباخرة فى چيبوتى يوم ٣١ ديسمبر ولم يصل قداسة البابا ومن معه الى أديس أبابا إلا فى ٣ يناير . وعلى المحطات وفى العاصمة الاثيوبية كان الإستقبال استقبالاً روحيا خشعت فيه الأبصار وطأطأت الهامات وانحنت الرؤوس محبة من المستقبلين لأبيهم الروحى الأعلى . وتصديقاً على هذا الشعور قال الأنبا كيرلس مطران اثيوبيا فى خطبة ترحيبه : « .... ياصاحب الغبطة ترنم جميع بقاع اثيوبيا اليوم بما كانت تشوق اليه .... نعم تهلل كل بقاع اثيوبيا وكل ما عليها : الإنسان والحيوان والنبات بل حتى الجماد ... »

ولقد تبادل قداسة البابا وجلالة الامبراطور الهدايا الثمينة . وتقديراً لما منحهم إياه غبطته قررت الحكومة الاثيوبية وقف عمارة كبيرة جديدة على إنشاء مدرستين بها : إحداهما لاهوتية والأخرى علمية مع إطلاق اسم الأنبا يؤنس عليها . وتبع ذلك أن وزع غبطته الهدايا على جميع الموظفين والعمال الذين ساهموا فى الإعداد لاستقباله وفى استقباله بالفعل .

ووصل الركب الباباوى فى عودته الى السويس فى ١٨ يناير سنة ١٩٣٠ ، وفى السرادق الفخم الذى أقيم لاستقبالهم وقف فضيلة القاضى الشرعى وألقى خطبة ترحيب قال فيها : « .... وأنا أمثل الشريعة الإسلامية والقضاء الشرعى فى هذا البلد الأمين ، أول خطيب يحى غبطتكم و ينثر بين يديكم زهور التكريم والتبجيل .

نعم ياصاحب الغبطة ، إننا نحييك فإنك الخلف الطيب لذلك السلف العظيم ألا وهو القديس المثلث الرحمات الأنبا كيرلس الذى ألف الله على يديه المباركتين عنصرى هذه الأمة حتى محا من سجل تاريخها كلمة مسلم وقبطى وجمع بين العالم والقسيس فصار الكل مصريا : والدين لله والوطن للجميع ... »

ولقد وصل الجميع بالقطار الخاص الى القاهرة الساعة ٤:٣٠ من بعد ظهر الأحد ١٩ يناير بسلامة الله (١).

وحينما احتلت ايطاليا اثيوبيا سنة ١٩٣٦ لجأ عدد غير قليل من أمرائها ورؤوسها الى وطننا الرحيب حيث عاشوا طيلة الاحتلال ــ أى لغاية سنة ١٩٤٢ . فأكرمتهم مصر واستضافتهم بسخائها المعتاد ــ لأنها إذا كانت تكرم خصومها حين يستظلون بسمائها أفلا تكرم أولادها بالأحرى ؟ وهؤلاء اللاجئون أنزلتهم البطريركية ــ وساهم معها أصحاب البيوت الوسيعة ضيوفاً ، ودفعت مصروفات تعليم أبنائهم فى كل مراحل التعليم (٢) كما قامت بكل متطلباتهم . كذلك أرسلت عن طريق الصليب الأحمر ــ كل ما يمكنها إرساله من غذاء وكساء وأدوية الى الشعب الاثيوبى فى محنته . فكانت أما رؤوما على وعى بأمومتها .

٣٤ ــ ومر ما يقرب من ربع قرن : وفى سنة ١٩٥٤ وصل الى غبطة الأنبا يوساب (البابا المائة والخامس عشر) دعوة من منظمى مؤتمر الكنائس الى إرسال مندوبين عن كنيستنا المحبوبة لحضوره ــ. وكان سينعقد بمدينة ايڤانستون بولاية ايللنوى فى أغسطس من تلك السنة (٣). فلبى غبطته الدعوة وأوفد القمص مكارى السريانى (الأنبا صموئيل فيما بعد) والقمص صليب سوريال راعى كنيسة مار مرقس بالجيزة ود . عزيز سوريال عطية أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية لحضوره . وفى هذا المؤتمر تقرر إنشاء ما أصبح معروفا الآن بمجلس الكنائس العالمى . وخليق بالأجيال الآتية أن تعرف أن الكاهنين أديا شعائر القداس الإلهى فى عدة كنائس لأن غبطة البابا يوساب زودهما بمذبح متنقل (٤) وبالصينية والكأس وكل ما يلزم لتأدية هذه الصلوات القدسية . كما أنهما ألقيا عدداً من المحاضرات فى الإذاعة وفى التلفزيون عن هذه الكنيسة العريقة فى وقت لم تكن به كنائس قبطية إطلاقا فى أوروبا وفى الولايات المتحدة . فكانا بذلك الطليعة التى مهدت السبل لتعريف العالم الغربى بها ومذاك اشتركت كنيستنا المحبوبة فى مجلس الكنائس العالمى وحضر مندوبوها كل المؤتمرات العامة ومؤتمرات اللجان التى تفرعت عن هذا المجلس .

وفى سنة ١٩٦١ بدأ عدد من القبط بالهجرة الى أوروبا فأمريكا ثم استراليا . وقد امتلأت قلوب هؤلاء المغتربين حنينا الى كنيسة الآباء والأجداد . وفى الوقت عينه أدرك آباء الكنيسة وجوب رعايتهم وحفظ الصلة بينهم وبين الكنيسة الأم . ونتيجة للوعى بالمسئولية من

---

(١) للوقوف على تفاصيل هذه الرحلة راجع كتاب يوسف جرجس ص ١٤٠ ــ ٢١٣

(٢) كانت كلّ مراحل التعليم بمصروفات آنذاك .

(٣) نشأت فكرة عقد مؤتمر يضم مندوبين عن الكنائس المختلفة عند بعض من الكهنة الاسكونلنديين ، فعقدوا مؤتمراً فى أوبساند (بالسويد) سنة ١٩٣٤ ، ثم عقدوا مؤتمراً ثانيا فى أمستردام عاصمة هولندا سنة ١٩٣٨ . وقد حضر المؤتمر الثانى القمص ابراهيم لوقا بصفته الشخصية .

(٤) المذبح المتنقل هو لوحة خشبية مربعة محفوراً فى وسطها قربانة تحيط بها من أركانها الأربعة الحروف المعبرة عن اسم السيد المسيح ، وفى كل ركن من اللوحة ملاك . و يقام صلوات التكريس عليها فتصبح مذبحا يمكن استعماله حتى فى الهواء الطلق .

جانب وللحنين من الجانب الآخر أصبحت للكنيسة المصرية كنائس فى انجلترا وفرنسا وألمانية والنمسا والولايات المتحدة وكندا وأستراليا . بل لقد رسم قداسة البابا شنودة الثالث أسقفين فرنسيين يوم عيد العنصر سنة ١٩٧٢ . كذلك للكنيسة المصرية مركزان للثقافة القبطية : أحدهما فى فرانكفورت وثانيها فى البندقية . وصار القداس القبطى يصلونه بالانجليزية والفرنسية والألمانية . وهذا الامتداد ليس سوى دليل على أن القبط حملوا مصر يتهم القومية والكنيسة حيثما ذهبوا مثبتين بذلك كلمة قداسة البابا شنودة الثالث بأن مصر وطن يعيش فينا .

ومن أروع الشهادات عن رحابة الكنيسة المصرية العريقة تلك الكلمة التى قالها أستاذ اللاهوت بجامعة كمبردج بانجلترا وهى : إن القبطى حين يذهب الى الكنيسة يستصحب معه مختلف المخلوقات ، فهو يصلى من أجل الأهوية والثمار ونباتات الأرض وكل شجرة مثمرة فى العالم كله ، وهو يصلى من أجل المياه ، وهو ـ طبعا ـ لا يمكنه أن ينسى الناس فيصلى من أجل المسافرين والمرضى والذين فى المطابق والسجون . وحينما كتب الأنبا كيرلس عامود الدين قداسه قدم طلبا الى الآب السماوى ـ فى أوشية القرابين ـ أن يذكر « الذين يريدون أن يقدموا وليس لهم » . فليس بغريب على كنيسة لها هذه النظرة الكونية أن تمتد شرقا وغربا .

٣٥ ـ ولنرجع مرة أخرى لنتيقن من بعض المؤثرات التى لكنيستنا والتى تاهت عنا ـ معرفتنا . وإحدى هذه المؤثرات هى « الأغابى » أو وليمة المحبة . وواضح أن الرسل عرفوها ولكنها لم تنتشر فى البلاد الأوربية إلا لغاية سنة ٣٦٣م . ولكن مصر عرفت هذه « الوليمة » حتى قبل المسيحية ! وكانت تقام فى المعابد بعد الانتهاء من الصلوات الشعائرية فهناك بردية جاء فيها : « إن شيرامون يطلب اليكم أن تشتركوا معه فى العشاء على مائدة الإله سيرابيس فى السيرابيون غداً ـ اليوم الخامس عشر والساعة التاسعة » ولقد درج القبط فى العصور الأولى على إقامة هذه الوليمة عقب صلوات القداس الإلهى فى قاعة ملحقة بالكنيسة واستمروا يقيمونها فى الأرياف ولو أنهم انقطعوا عن إقامتها فى المدن . ويرجح انقطاعها الى ما تعرضت له الكنائس من الهجمات حتى أثناء الصلاة . ولكنها عادت الى الظهور فى المدن فى المناسبات الكنسية المختلفة وليس فى كل أحد كما كانت العادة قديما .

وفى العصور الأولى حين كان يضطر القبط الى إقامة شعائرهم بين المقابر كانوا يقيمون وليمة الأغابى هناك أيضا . لأنهم كانوا يستهدفون إقناع الوثنيين (من غير المصريين) الى أن الصلة بين من لا يزالون على هذه الأرض وبين من انتقلوا منها لا تزال قائمة . فالكنيسة المجاهدة ـ على الأرض ـ تصلى من أجل الذين وصلوا الى الكنيسة المنتصرة فى الفردوس ، وهم بدورهم يصلون عنا ـ أى أن الصلاة متبادلة بين من هم هنا وبين من عبروا الى الحياة الباقية (١) .

٣٦ ـ وثمة فكرة تصوفية صدرت هى أيضا عن مصر هى فكرة « ما قبل الزمن » أو « الأزلية » . وهذه الفكرة لم تطرأ حتى على الفكر المسيحى الغربى قبل أن أصر الآباء المصريون فى مجمع نيقية ـ المسكونى الأول ـ الذى انعقد سنة ٣٢٥ م على وصف السيد المسيح بأنه

(١) « ١ » مصر وإسرائيل » ـ ص ١٣١ ـ ١٣٣

« مولود من الآب قبل كل الدهور » . ولقد اضطروا الى استعمال هذا التعبير بدلاً من قولهم « أزلى » لأن هذه الكلمة لا وجود لها فى اللغات الأوربية (١) . وهذه التفرقة بين الأزلية (قبل الدهور) والأبدية (الى دهر الدهور) موجودة فى اللغة المصرية منذ أقدم العصور، وهى بالطبع قد لازمت الفكر المصرى حينما تحول من الوثنية الى المسيحية . وهذا واضح من موقفهم فى نيقية وفى أنهم نجحوا فى توصيل المعنى المقصود منها الى كل الآباء الذين اجتمعوا معهم آنذاك والذين حملوها الى كنائسهم . و يقول فليندرز پيترى : « إن التفرقة بين « الأبدية » قبل الزمان التى لم يكن الغرب ليتفهمها أو يدرك أهميتها قد انطبعت على عقله منذ أن أوضحها وأصر عليها المصريون »(٢) .

وتقول الكاتبة الروحية هيلين وادل : « إن النساك آباء الصحراء عرفوا أن يعيشوا الأبدية هنا على الأرض فوضحوها دون الالتجاء الى الكلام . وهم أيضا عرفوا أن يعيشوا وفقا للإدراك بأن الله لا بداية له و بالتالى هو « قبل الدهور » . فالأزلية والأبدية متلازمان فى الفكر المصرى وفى حياة الرهبان المصريين » (٣) .

٣٧ــ ويختتم فليندرز پيترى كتابه المذكور بقوله : « لو أننا أعملنا خيالنا التاريخى وتصورنا أن إرهافات التعبير عن الثالوث الأقدس لم تحدث إطلاقا ، وأنه لم يوجد هناك دير يؤدى الى خصيان خيرة المجتمع ، وأن « الثيئوتوكس » وأيقونة السيدة العذراء حاملة ابنها الحبيب لم يكن لها وجود ــ لو تصورنا هذا كله لوعينا التغييرات التى أحدثتها مصر فى المسيحية وكيف أن هذه التغييرات أجنبية تماما عن الأصل العبرى ... فمن مصر نشأت كل هذه التغييرات . فكل من مصر وإسرائيل مضادة للأخرى : وهذه المضادة هى فى جذور التفكير الدينى والتى استمرت على مدى أربعة آلاف سنة الى عصرنا الحاضر » .

بينما يتساءل بريستد : « إن أمينومو پى يصر على أن يجد المثالى فى الرجل الصامت الذى يدع أموره بين يدى الله . وإذ قد عرفنا أن كتابه كان يقرأ فى أورشليم وأن العبرانيين كانوا يقتبسون منه و يستشهدون به أفلا نستطيع القول بأن مفهوم المتألم الصامت « كحمل صامت أمام الذى يجزه » الذى تصوره الأنبياء مأخوذ أيضا عن حكماء مصر؟ على أية حال قد عرفنا الآن أن المثالية الاجتماعية المبنية على المفاهيم العليا للشخصية : أقدم مثالية بل والوحيدة فى ذلك العصر لم تقم إلا فى مصر وهى سابقة على سنة ٢٠٠٠ ق . م . وأن الكتب المصرية المتضمنة لهذه المفاهيم قرأها أولئك الرجال الذين كتبوا لنا العهد القديم »(٤).

---

(١) فهم يعبرون عن المفهومين بكلمة واحدة هى Cternity ــ الأبدية ــ والقارىء يفهم المعنى المقصود من سياق الكلام .

(٢) « مصر وإسرائيل ص ١٣٥ ــ ١٣٦

(٣) « آباء الصحراء » (بالانجليزية) المقدمة ، طبع فى لندن سنة ١٩٣٦

(٤) فجر الضمير ص ٣٨٢ ــ ٣٨٣

٣٨ــ ومن المؤلم أن التقدم الأدبى الروحى بطىء بدرجة مزعجة . فلقد بزغ فجر المثاليات فى مصر كما رأينا منذ سنة ٢٧٠٠ ق . م . ومع ذلك فنحن لم نصل الى الظهيرة بعد ! وهناك احتياج شديد الى الصبر : صبر الإنسان الذى تعلم أن ينتظر بل وأن يتوقع فى صمت . وللتدليل على بطء هذا النمو الأدبى الروحى نضع مقارنة بين أقوال حكيم مصرى الى جانب و بين كتابات حديثة الى الجانب المقابل .

الحكيم المصرى (سنة ١٠٠٠ ق . م)

يا أمون . أيها البئر العذب للعطشان فى الصحراء ، إنه مغلق لمن يتكلم ولكنه مفتوح للصامت . هوذا حين يأتى ذاك الذى يصمت فإنه سيجد البئر مفتوحة .

عن كتاب « الينبوع » لتشالرز مورجان سنة ١٩٣٢ م .

ومع ذلك لم يكن عدم الكلام فقط ، بل بالأولى بدا كأنه دخل الى أقصى أركان بلاط الصمت حيث وجد ينبوع الروح يتفجر كعين منسابة من الأرض .

و بعد الانتهاء من هذه الحياة سواء أكانت حياة التأمل أو حياة الحركة والمغامرة نستمع الى الشاعر الانجليزى سپنسر الذى عاش فى القرن الميلادى الخامس عشر يتغنى بالموت ــ وكأنه رجع الصدى لأقوال المصرى الشاكى الذى نستطيع تسميته أيوب المصرى :

الموت أمامى اليوم كالشفاء للمريض ، وكالتمشى فى الحديقة بعد المرض ، الموت أمامى اليوم كسبيل العصفور الطائر ، وكالمحارب الذى عاد بعد المعركة .

سپنسر فى قصيدة « الملكة الجنية »

إنه هناك الآن يستمتع بالراحة الأبدية : النوم بعد العمل الشاق والميناء بعد البحر الصاخب ، الهدوء بعد الحرب والموت بعد الحياة مسّرة كبرى .

نصب تذكارى على مقبرة شريف مصرى عاش حوالى ٢١٠٠ سنة ق . م

إن فضيلة الإنسان هى نصبه التذكارى ، ولكن الشخص ذى الصيت الشرير ينسى .

امثال ١٠ : ٧

ذكرى الصديق للبركة

نصب تذكارى على مقبرة انجليزى من القرن الثامن عشر : إن المديح المنقوش على الحجارة هو عبث ، والاسم الحسن للإنسان هو خير تمثال .

ويمكن استجماع الآلاف من الأمثلة كدليل على أن الأجيال تتوالى ألف سنة بعد ألف : كل يجمع اختباراته ، والى حد كبير يكرر و يعيد صياغة التعبيرات التأملية التى تركتها له الأجيال السابقة . وخير منهاج للتنمو المتعقل هو الموازنة بين دروس الماضى ورؤ يا الحاضر .

ومصر ــ بوصفها معمل اجتماعى ــ تلقى ضوء قيما على عمليات التطور الأعلى للإنسان ، وتمهد لإمكانية عالم تستطيع فيه الحكومات أن تهىء الظروف المواتية لنمو أدبى مستنير .

٣٩ ــ ونحن أول جيل من الرجال والنساء فى إمكانهُ أن يلتفت الى الوراء فيرى تاريخا طويلا سحيقا للمسلك الإنسانى فى شامله ، وأن يتتبع التحول العظيم من هذه العصور الغائصة فى القدم الى يومنا هذا . ومن نعمة الله أن عقولنا أول عقول فى هذا الوضع الذى يمكنها من أن تدرك بزوغ الضمير وتصاعد الوعى بالمسئولية المجتمعية بعد ٣٠٠٠ سنة ق . م . ــ هذا الوعى الذى أوصل أبانا الإنسان الى حدود « دولة جديدة » : دولة العالم الباطنى . فواجبنا نحن أولاده أن نجوب مجاهله . ولئن كان جماله وبهاؤه مازال مختفيا خلف غيوم الضعف البشرى والطمع والتقاتل فلن تتبدد هذه الغيوم إلا بالسعى المتواصل لتبديدها . وبتفحصنا ذلك العالم السحيق الذى استطاع فيه الإنسان أن يخرج من بدائيته و يتطلع فى عمق نفسه سنجد القوة والتشجيع على موالاة المسيرة . وفى هذا الصدد يقول بريستد : « كنت أسير ذات مرة بين أطلال بعض المدن القديمة فانتصبت أمامى صورة واضحة : هى أن الناس الذين كانوا يمشون فى شوارع هذه المدن المتداعية الآن هم أول من صعد الإنسان لأول مرة فى تاريخه على هذه الأرض من التغلب على الماديات الى رؤيا من المثاليات بلغت من الحيوية أنها مازالت تعتمل فينا نحن الذين نبنى الحضارة الغربية على ضوء النور الباهر الذى انبثق من مصر ... فمن ذلك اليوم البعيد الغامض الذى صنع فيه الانسان أول بلطة حجرية ، وعلى مدى القرون ، والى الآن حين يطوف الكرة الأرضية بإذاعته و بطائراته وحين يمكنه أن يقضى على مدن بأسرها فى لحظة ــ مذاك تركز صراع الإنسان على الماديات . ولكن ــ بالأمس فقط ، ومن خلال أتربه هذا الصراع لمح أبونا الإنسان ومضة من ذلك المجد الروحى ــ الأدبى ، وسمع همساً لصوت فى داخله ، صوت امتزج فيه حب العائلة والأصدقاء والجيران والفقراء والمعوزين بحبه لوطنه ولملكه ، وهذا الحب امتزج أيضا بحبه للسماء وللبحر وللأشجار وللخضرة الناضرة التى تغطى الأرض والتى تقدم له قوته وشرابه . وهذه الومضة الخاطفة وهذا الهمس الرقيق تحول الى رؤية صافية وصوت واضح ، و بالتالى كان الدافع الى تحويل الآلهة التى ترمز الى الطبيعة الى إله واحد هو الأب لكل الناس وإليه يضرعون و يفزعون .

« وإنى لمتيقن من أن الرؤية التى تحولت الى رؤيا ستؤثر فى سلوكنا : سلوكنا الفردى والقومى والدولى . ومتى وعينا هذه الرؤيا سنجد فيها إمكانية التغلب على كراهياتنا الدولية ــ بل بالأحرى ستجد فيها الحافز لإنماء مشاعر الأخوة والتفاهم والمودة ... ولقد كان هدفى من كتابة « فجر الضمير » هو أن أوضح أن عمليات التطور التى أبرزت الشخصية الإنسانية فى حد ذاتها مازالت مستمرة وأن إمكانيات المستقبل غير محدودة . فمسئوليتنا هى أن نرفع أمام الأعين هذه الصورة العظمى : صورة الإنسان فى صراعه مع نفسه ... فكما أن نور الشخصية أشرق وسط ظلمة لم تكن على وعى به من قبل هكذا يمكننا أن نعمل على امتداد هذا الإشراق داخل أغوار للكيان لم يصل اليها بعد .... » (١) .

---

(١) كل ما ورد من ف ٣٥ الى هذه النقطة ملخص عن « فجر الضمير » ص ٣٩٣ ــ ٤١٢

٤٠ ــ وثمة مجال آخر كان للفراعنة قصب السبق فيه وهو العلاج النفسانى . فكان للإيحاء دور هام فى كل أنواع العلاج . فالمتدينون كانوا يستشعرون أن الخبز اليومى الذى يأكلونه والذى يحفظ حيويتهم ويجددها باستمرار هو سر عظيم . فكم بالحرى يكمن السر فى الأدوية . ولقد انبهر الزوار اليونان والرومان بصفة خاصة أمام العبادات المصرية واعتنقوها حتى من غير أن يفهموها . لأنهم فهموا شيئا واحداً هو أن كل هذه العبادات إنما تهدف الى شفاء النفس والجسد . وقد أورد المؤرخ ديودورس أنه على بوابة المكتبة المقدسة الملحقة بمعبد رمسيس فى طيبة وجد الجملة التالية : « المكان لشفاء النفس » (١) .

وكان معلمو الطب يلقنون تلاميذهم بأن الطبيب يجب أن يكون ذا ثلاثة عشر عينا : العينين اللذين يتشارك فيهما معه كل الناس ، وعشرة عيون ــ الواحدة منها عند طرف كل أصبع . وهذه يجب أن ترى أعمق من العينين العامتين ، وعين فى القلب هى التى يجب أن ترى الى أعمق عمق (٢) .

وإن من يقرأ تاريخ مصر يندهش أمام ترابط الأجيال : فهذه العناية بشفاء النفس التى أولاها الكهنة ــ الأطباء لشعبهم ترددت أصداؤها فى شخص الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين الذى حضر معجزة جبل المقطم . وهذا الأسقف الجليل معروف بكتابه عن بطاركة الاسكندرية . ولكن كم منا يعرف أنه كتب ما لا يقل عن خمسة وعشرين كتاباً غير كتابه عن الآباء ؟ ومن بين هذه المؤلفات كتاب بعنوان « طب الغم وشفاء الهم » . وواضح من هذا العنوان أن الكتاب خاص بالشفاء النفسانى . ولقد عاش الأسقف الأشمونى فى النصف الأخير من القرن العاشر للميلاد ــ أى أن هناك ما لا يقل عن ستة وثلاثين قرنا من الزمان تفصل ما بين الكتابات الفرعونية عن علاج النفس وبين كتاباته ــ ولكن الوعى الكهنوتى نحو مسئوليتهم عن الشعب قد جمعت بينهما على بعد المزار .

الخلاصة :

وبعد أن استعرضنا هذا السجل الحافل للإنتاجات الروحية الأدبية التى بزغ فجرها فى مصرنا الحبيبة ، وبعد أن سايرنا ما أحدثته من آثار بعيدة المدى على مختلف الحضارات ، وبعد أن رأينا كيف تلقاها آباؤنا وقد أصبحوا مسيحيين ــ بعد هذا كله ما هو واجبنا نحن الذين توارثنا هذا التاريخ الطويل الغائص فى القدم والذى مازال مستمراً فينا حتى على غير وعينابه ؟ لقد أوصانا

---

(١) عن كتاب د . حسن كمال « قاموس الطب الفرعونى » (بالانجليزية) ص ٣٩١ ، وقد اقتبس ما ورد أعلاه عن المستشرق سيجبرست فى كتابه « تاريخ الطب » المطبوع فى لندن سنة ١٩٥١

(٢) بردية « چورچ ايبرز الطبية ــ محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى . ومن الطريف أن نلحظ أن شارة الصيدلة هى ثعبان داخل كأس ، وكلنا يعرف أن الثعبان كان عند الفراعنة من الرموز التى تشير الى الحكمة الروحية والطبية . كذلك يستمر الأطباء فى وضع حرف «R» فوق كل روشتة قبل أن يكتبوا الدواء الذى ينصحون به . وقد قال د . جورجى صبحى بأنها إشارة الى رع الذى كان الاطباء الفرعونيون ينادون عليه ليجعل أدويتهم ناجحه .

فادينا الحبيب بأن نفتش الكتب ، ووصيته معناها أن نفتش لكى نتعلم ونستوعب ونعمل . فكل هذه الأجيال المتتالية وعلى رأسها رب المجد تهيب بنا أن نحفظ الوديعة أولاً ثم نبنى عليها ثانيا . فكل حامل للشعلة المقدسة متوقع أن يجد فى أولاده وأحفاده ومن يليهم حملة لهذه الشعلة التى رفعها عاليا . وطوبى لمن علم وعلم .

المراجع

1- The Dawn of Conscience, by James H.Breasted, New York 1934
2- Egypt and Israel, by Flinders Petrie, London 1911
3- The Wisdom of the Ancient Egyptian, by W.MC Quitty
4- The Ancient Egyptian Religion, by Prof. Czerni, London 1952
5- Cairo, by James Aldridge, Toronto, 1969
6- The Aquarian Gospel by Lev, 13ed., London 1920
7- The Desert Fathers, by Helen Waddell, London 1936
8- Dictionary of Pharaonic Medecine, by .H Kamal. 1st ed.,
9- Le Nationalisme chez les Pharaons, by, E.Drioton, Le Caire 1943
10- Etude du Papyrus Aphroditi, by Maspero, Bulletin de l'institut Francais d'Archeologie Orintale, no. 1908,

١١ ــ قصة الكنيسة القبطية للمؤلفة جـ ١ وجـ ٢ وجـ ٣ وجـ ٥ وجـ ٦ب
١٢ ــ مسيحنا فوق الزمان ،
١٣ ــ كتاب يوسف جرجس عن رحلة الأنبا يؤنس التاسع عشر ــ القاهرة سنة ١٣٩٠
١٤ ــ الطب والتحنيط فى عهد الفراعنة ــ تعريب أنطون زكرى أمين مكتبة المتحف المصرى ــ القاهرة سنة ١٩٢٦ الكتاب المقدس بعهديه

15- The Ebers Papyrus on Medieine- Lib. of Brit. Museum
16- The Background of the Old Testament, by Cyrus Gordon, New York, 1950.
17- The Survival of Ancient Egypt, by G.Sobhi, in Le Bulletin de la Societe d'Archeologie Copte, T. IV, 1938, Le Caire

عن كتاب د . حسن كمال (بالانجليزية) :

« شوكة المسيح »

(نقلها د . حسن كمال عن المستشرق الألمانى كايمر فى كتابه « جارتن فلانزن »

عن كتاب د. حسن كمال

الإلهة ايز يس وعلى حجرها ابنها هورس

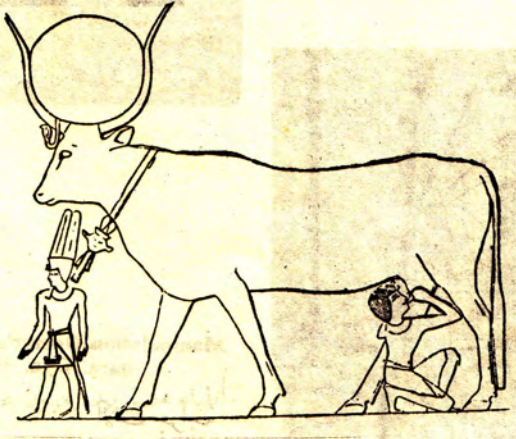

اللبن غذاء مقدس

الملكة هاتشبسوت ترضع لبن الإلهة هاتور

عن كتاب د . حسن كمال ــ ص ٤٥٣

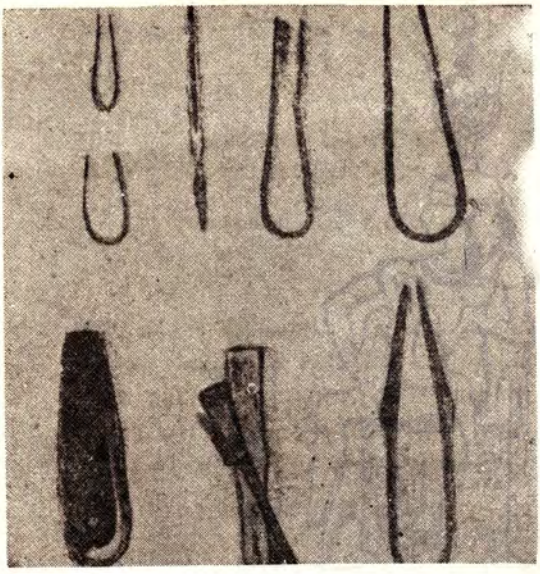

آلات جراحة ترجع الى حوالى سنة ١٢٠٠ ق . م .
محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة

تطبيب الجروح

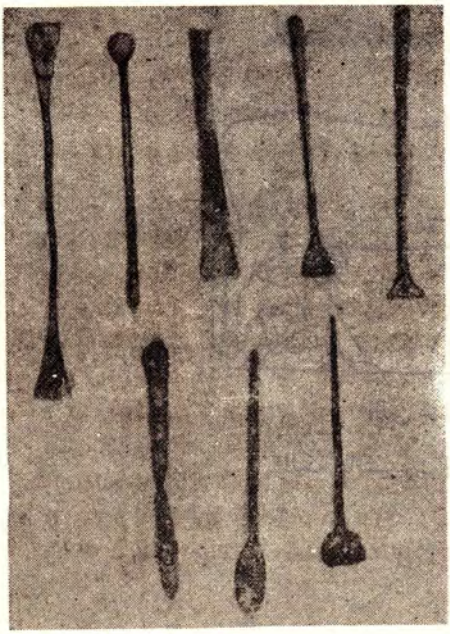

آلات جراحة

عن كتاب د . كمال حسن ، ص ٤٥٥

تخييط المومياء بعد تحنيطها

آلات جراحة على جدار معبد كوم امبو

Manipulation-Doctor's tomb Sap-
para. Dyn. V.

أطباء مصريون يجرون عمليات جراحية
فى أيدى بعض المرضى وأرجلهم —
عن مقبرة الأطباء فى سقارة فى عهد الملك
تيتى : الأسرة الخامسة حوالى سنة ٢٦٠٠ ق . م .

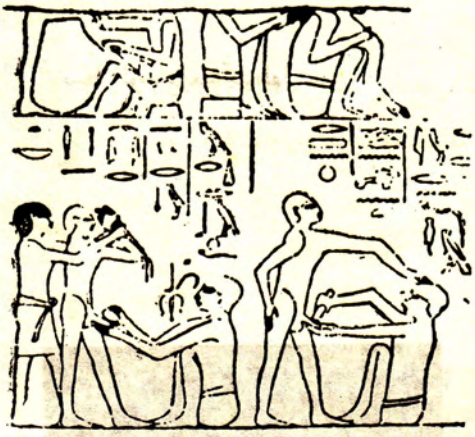

عملية ختان

صيادلة فى عملهم

Pharmacy after Fillon. To face p. 333

عن كتاب د . حسن كمال

رسم تمثال نصفى لطبيب مصرى قديم من الحجر الجيرى من الدولة القديمة
أى يرجع تاريخه الى ٥٠٠٠ سنة وهو محفوظ اليوم بمتحف اللوفر بفرنسا

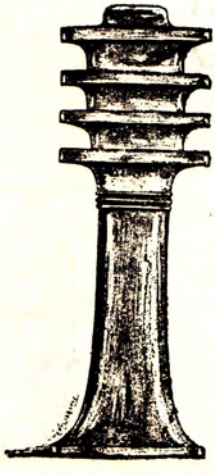

علامة البقاء والخلود

عن كتاب « الطب والتحنيط فى عهد الفراعنة » لأنطون زكرى

كان إمهوتب أول من برز بين أطباء مصر، وله مقبرة فى سقارة. وقد بنى المصريون باسمه مستشفى فى معبد منفيس يقصده المرضى من الجهات النائية لينالوا الشفاء بعد مكثهم زمنا محدودا، وكان كثيرون من الكهنة بارعين فى تشريح الجثث وتحنيطها. واكتشف بجوار معبده مكتبة هى اشهر ما اكتشف. فى تاريخ مصر القديم و بقيت الى عصر الرومان، ومنها استخرجت ورقة برلين الطبية البردية التى كان لها شأن عظيم فى علم الطب.

وهكذا يعلن التاريخ الناصع أن الاحتلال الاجنبى للممالك الشرقية فى كل العصور كان يفسح لهم مجال الفرص فى اكتناز كل نفيس واقتباس كل مفيد، و يدعون التملك لكل ما اغتصبوا، و يزعمون لأنفسهم الأسبقية والتفوق على البلاد حتى فى المعلومات المعنوية الموضعية فضلا عن الصوالح المادية العمرانية التى أمامنا منها كل يوم ألف دليل و برهان. فعسى أن يقترب لنا الوقت الذى تحقق فيه الامال وعد القائلين (ولابد يوما أن ترد الودائع) المترجم

رسم المعبود حورس على شكل طفل يضع اصبعة فى فمه وهو إله الصمت

عن كتاب أنطون زكرى

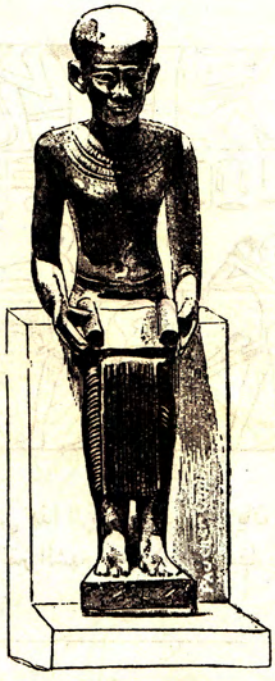

تمثال إمهوتب ، وقد اعتبر إلها عند قدماء المصريين . والأصل بالمتحف المصرى من البرنز بقاعة الآلهة المصرية القديمة

عن كتاب أنطون زكرى

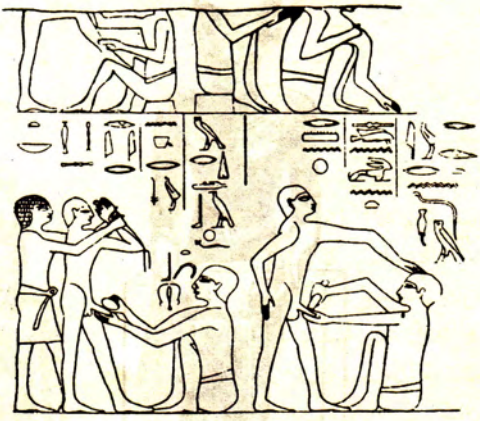

ترى فى الجزء الاسفل من هذا الرسم طبيبين يجريان عملية الختان لشابين
وهذا الرسم مأخوذ من القبر الشهير بقبر الأطباء بسقاره

منشأ الختان

اختلف المؤرخون فى منشأ الختان وترجحت أكثرية الآراء القائلة بان منشأه وادى النيل بدليل الرسوم المتقدم ذكرها ، وقد عضد رأيهم هذا المؤرخون المتأخرون وفيهم هيردوت وديودور الصقلى وسترابون . وفى جملة ما استدلوا به على ذلك وجود تمثال كاهن يدعى أنيساخا (Anisakha) من الأسرة الخامسة أى منذ ٢٧٠٠ ق . م عارى الجسم مختونا وهو من محفوظات المتحف المصرى الآن بالطبقة السفلى بقاعة حرف **B** بالخزانة الواقعة فى الجانب القبلى رقم ١٦٢

وكانت عاداتهم ختان الكهنة فى دور الطفولة دلالة على ان آباءهم خصصوهم للخدمة الدينية ، فينشأ الطفل على التربية اللائقة بها فيحترمه خلطاؤه لأجلها .

عن كتاب أنطون زكرى

رسم الملك امنوفيس الرابع (خون اتون) وزوجته واولاده . والاصل محفوظ فى القسم المصرى بمتحف برلين تحت نمرة ١٤١٤٥ وليس له مثال آخر فى الابداع واتقان الصنع وكان مصابا باستسقاء فى الدماغ وكثيرا ما كان يستر هذا العيب بالخوذة وقد صور رؤوس زوجه و بناته على مثال رأسه حتى يخفى عيبه واعتبر ذلك من سمات الجمال

عن كتاب أنطون زكرى

المؤلفة تشير الى مدينة ممفيس على خريطة لمصر القديمة، وفي يدها كتاب قصص قبطية

أميرة لها عينان اصطناعيتان

رسم جثة محنطة للاميرة نز يتا نباشر(Nesitanebasher)(الاسرة ٢١)
ولها عينان اصطناعيتان واللفائف حول وجهها وأنفها

عن كتاب أنطون زكرى